



# نَزْعَةُ الْفِكْرِ الْأَقْبَلِيِّ فِي الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَر

إِسْمَاعِيلْ مُظْهَرْ



# نزعه الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر

تعریب  
إسماعیل مظہر



# نزعـة الفـكـر الأـورـوـبـي فـي القرـن التـاسـع عـشـر

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

بورك هاوس، شبيت سرتيت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تلفون: + ٤٤ ( ٠ ) ١٧٥٣ ٨٢٢٥٢٢

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

---

تصميم الغلاف: محمد الطوبجي

التقديم الدولي: ١٣٢٥ ٥ ١٥٢٧٣ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٢٢.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٧.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة

الشرع الإبداعي: تَسْبُبِ المُصْنَفِ، الإصدار ٤٠. جميع حقوق النشر الخاصة بـنص العمل

الأصلي خاضعة لـلملكية العامة.

# المحتويات

مقدمة

نزعـة الفـكـر الأـورـوـبـي فـي القرـن التـاسـع عـشـر

٧

١١



## مقدمة

الأستاذ «جون تيودور مرتز» أشهر من أن نُعرّف به ملماً بالأدب الإنكليزي في العصر الحاضر، على أنه إن كان تعريف القراء بمؤلفٍ أوروبيٍ أمراً واجباً، فحسبنا أن نقول في ذلك الأستاذ: إن مؤلفه في تاريخ الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر ينزل من مؤلفات هذا العصر في التأريخ العلمي منزلة كتاب «غيبيون» في سقوط الدولة الرومانية، أو مؤلف «مومنز» في تاريخ روما، من حيث الأثر والقيمة، على ما بين التأريخ العلمي والتاريخ العام من الفوارق التي لا تغيب عن المشتعلين بالعلوم الحديثة.

أنفقت وقتاً غير قصير في الإكباب على دراسة كتاب «مرتز»: تاريخ الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر، فثبتت في يقيني أن نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية يكون بمثابة حلقة وصل بين عهدين: بين العهد القديم، والعهد الحديث في تاريخ العلم والفلسفة، وأيقنت من جهة أخرى، أن وقوف الناشئين من أبناء العربية على آخر ما جادت به عقول النبغاء في أوروبا من ثمرات العلم والفلسفة حتى ختام القرن التاسع عشر تمهد ضروريًّا لمن يريد أن يتابع حركة النشوء الفكري في القرن العشرين.

فروع العلم الحديثة واسعة النطاق، وهي على تباعين مراميها ووجهاتها متعددة الغاية؛ فإن الغاية منها تثقيف العقل الإنساني، فهي مرقاة يتعلق بأسبابها الإنسان لكي يصل إلى أبعد حد مستطاع من الرقي الاجتماعي؛ لهذا رأيت أن لا أقتصر القراء على قراءة كتاب في تاريخ الفكر الأوروبي، علمياً وفلسفياً، يقع في أربعة مجلدات ضخم، في حين أن كلاً منهم قد يعني بمقال واحد فيه؛ فإن المؤلف قد قسم الكتاب إلى شطرين عظيمين: خص الشطر الأول بالعلم، والثاني بالفلسفة، ولم يترك في كلا الشطرين من علم أو مبحث

فلسي لم يكتب فيه مقالاً رائعاً يصح أن يكون في ذاته رسالة مستقلة عن الكتاب في مجموعه؛ لهذا فضلت أن أنشر الكتاب في رسائل ملخصة تلخيصاً هو أقرب الأشياء شبهاً بالترجمة الحرفية، بما تفضيه من أمانة في تحري الألفاظ التي تعبر عن حقيقة الفكرة الخفية في موضوعات العلم والفلسفة.

ولست بِمُؤَكِّدٍ نفسي بترتيب أبواب الكتاب، فقد أنشر رسالة من رسائله الفلسفية لأعقب عليها برسالة في العلم أو آخر في الأدب، وسوف أبذل جهدي لجعل ظهور الرسائل متتالياً في فترات تكفي لامتصاص الفكرة المتباينة في تضاعيف كل منها.

إن تلك الملخصات سوف تكون تاريخاً ومرجعاً لبحث الفكرتين العلمية والفلسفية في القرن الماضي، سوف تُرضي مقتراح الكثيرين من الأصدقاء الذين طلبوا إلى أن أخرج في العربية رسائل مختصرة توقف الناشئين على ما وصل إليه العلم، وما بلغت إليه الفلسفة في العصور الحديثة، على أنني بعد التفكير الطويل قد اقتنعت بأننا في عصر أحوج ما نكون فيه إلى الترجمة والنقل، فإذا أضفنا إلى ذلك أن صوغ المبادئ العلمية والفكرا الفلسفية في قالب تاريخي أدبي، أروح على نفوس الناشئين والطلاب والباحثين من الإكباب على المصطلحات الفنية الصرف، عرفنا إلى أي حد تذهب الفائدة في نشر هذا الكتاب في رسائل مستقلة تخرج من ثلاثة جهات نوراً ساطعاً: من جهة العلم، ومن جهة الأدب، ومن جهة الفلسفة.

كذلك قد حررتُ نفسي من التقيد بنشر كتاب «مرتز» وحده؛ فإن في عالم المؤلفات الحديثة كُتبًا قيمة في مختلف الموضوعات العلمية والفلسفية قد أخص الكثير من فصولها بالتلخيص، وإن كان أغلب هُمنا سوف يُصرف إلى كتاب «مرتز» بادئ ذي بدء، على أنني سأُخُصُّ كتاب العلامة «جون ديكسون وايت» في «تاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم في عصور النصرانية» بقسط من العناية لا يضارعه إلا عنايتي بكتاب «مرتز»؛ فإن شباب هذا العصر وباحثيه إن وقفوا على تاريخ تحرير العقل من أُسر الأوهام التي سطت عليه في القرون الوسطى، وعرفوا تاريخ الجلاد الذي وقع بين اللاهوت والعلم حتى أواخر القرن الثامن عشر، ووجدوا بين أيديهم تاريخاً كاملاً في كل ما أنتج العقل والفكر في القرن التاسع عشر. أتموا بذلك رحلة يستقر بهم نواها على منتجات العقل في القرن العشرين.

## مقدمة

على أنني إن حررت نفسي من التقيد بموضوعات الكتابين، ومما سوف أنتقي من فصول المؤلفات الحديثة التي آنس فيها إتماماً لغرضي هذا؛ فإني سأعمل على أن أحافظ بأوجه العلاقة الواقعة بين ما أنتقي من موضوع الرسائل؛ ليحدث تسلسلها في ذهن متبعيها كفاءة خاصة يدركون بها مقدار الفرق بين القديم والحديث.

إسماعيل مظهر

القاهرة، أغسطس سنة ١٩٢٣



# نزعه الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر

١

هناك وراء المشاهد التي تتمثل أمامنا في الحوادث الخارجية، والتقلبات التي يكشف لنا التاريخ عنها جلية أمام حواسنا، يقع العالم الخفي، عالم الرغبات والبواعث، ومحركات الفكر، متبعاً بالانفعالات النفسية وقوى الحياة التي تنتج تلك الظاهرات أو تصحبها.

هناك وراء مظاهر الحياة، نجد العالم الخفي، عالم الفكر، وما كان للتاريخ – حسب ما يفهم اليوم من معناه في اللغات الحديثة – أن يكون تاريخاً حقاً حتى يتناول الحقائق والحوادث متتابعة متلاحقة، متواصلة غير مقصومة الحلقات، فيظهرها لنا متراقبة الأسباب، جماعها عائد إلى قصد أو غرض ما، فيرجع بنا إلى الماضي سعيًا إلى علة جوهرية، أو يسوقنا إلى الأمام ابتعاء غاية محدودة، كذلك الحال في محركات الفكر وبواعثه، والرغبات وقوى الحياة التي تقع وراء الحوادث الظاهرة؛ فإنها تحتاج للاتصال، وأن تظهر على حال من النظام والتتابع حتى نستطيع أن نبلغ منها بفهم، أو نتقاصها بتاريخ ووضع.

على أن ذلك العنصر الخفي، عنصر الفكر، *لهُو الذي جمع بين شتاتها، ووصل بين أطرافها، وهو الذي يجب على المؤرخ – إذ يتصدى للكشف عن هذه الحقائق – أن يستوعب شارده ووارده. والفكر وحده، مهما تعددت مظاهره، وتنوعت مشاهده، سواء أكان مبدأ للعمل وبذل الجهد، أو واسطة يتلوها التأمل والاستبصر، في مستطاعه أن ينظم المترفقات المبددة، ويربط بين فروعها، ويجمع بين شتاتها، وفي طوق استطاعته أن يحرك ما ليس بمحرك، وأن يدفع بالحركة إلى الأمام ما هو ثابت، لا متقدم له ولا متأخر.*

ولا جرم أنك إن استطعت أن تذهب إلى الدنيا بعالم الفكر؛ فإنك لا تجد أن اطراد النسق، ووحدة الوتيرة، والتجانس التام قد أصبح المبدأ في نظام الطبيعة.

وهذا القول قد يظهر للسود الأعظم من الناس غريباً، وفيه كثير من التطرف والجرأة. أما أولئك فهم الذين يتذمرون ظاهرة الطبيعة العظمى أكثر من تدبرهم تلك الحدود الضيقة التي ينحصر فيها عمل الإنسان ونشاطه ودائرة تبصره، على أن بضعة ملاحظات لتكتفي للدلالة على أن ما أونـنـ به لا ينافي وجهـةـ النظرـ التيـ يـنظـرونـ؛ فقد يقول البعض: إننا نجد، بعيداً عن عالم الفكر الإنساني برمتـهـ، أنـ للأـرضـ تـارـيـخـ، وأنـ لـلنـظـامـ الشـمـسيـ تـرـدـجاـ وـنشـوـءـ، وأنـ النـشـوـءـ عـلـىـ نـظـرـيـاتـ الـعـلـمـ الـحـدـيـثـ هوـ المـبـدـأـ الـأـوـحـدـ الـذـيـ يـخـضـعـ لـهـ الـعـالـمـانـ:ـ الـحـيـ،ـ وـغـيرـ الـحـيـ،ـ وـأـنـ السـكـونـ وـالـتـجـانـسـ لـاـ وـجـودـ لـهـماـ فـيـ الـكـوـنـ،ـ وـأـنـ أـيـنـماـ وـلـيـتـ وـجـهـكـ باـحـثـاـ فـيـ نـوـاـحـيـ الـطـبـيـعـةـ لـاـ تـقـعـ إـلـاـ عـلـىـ ضـرـوبـ مـنـ التـغـيـرـ،ـ وـأـوـجـهـ مـنـ الـحـرـكـةـ.

ولكن لا يعرفون أن التغيير والحركة ودهما لا يبعثان على وضع التاريخ وتكونيه؟ فإن التغيير والحركة ليصبحان من الاطراد والثبات على نمط معين، بحيث يكون حكمهما في الطبيعة حكم السكون التام، إذا تكرر وقوعهما متعاقباً على وتنـةـ واحدةـ،ـ وـشـكـلـ غـيرـ مـتـنـاـ،ـ أوـ إـنـاـ لـمـ تـُـحـدـثـ الـحـرـكـةـ شـيـئـاـ زـائـدـاـ عـلـىـ مـاهـيـتـهاـ،ـ بـأـنـ يـكـوـنـ ذـلـكـ الشـيـءـ الزـائـدـ عـلـىـ مـاهـيـةـ الـحـرـكـةـ أـكـبـرـ خـطـرـاـ،ـ أوـ أـحـسـنـ صـفـةـ مـنـ نـقـطـةـ الـابـتـاءـ،ـ وـلـكـ مـصـطـلـحـاتـ الـكـلـامـ إـذـ نـسـتـعـمـلـهـ لـتـدـلـلـ عـلـىـ ذـلـكـ الشـيـءـ الـذـيـ نـخـصـهـ «ـبـعـظـمـ الـخـطـرـ»ـ وـ«ـحـسـنـ الصـفـةـ»ـ،ـ تـلـكـ الـتـيـ تـحـتـاجـ فـيـ الـمـقـارـنـةـ وـالـقـيـاسـ إـلـىـ كـائـنـ مـفـكـرـ يـجـعـلـ لـشـيـءـ مـنـ الـخـطـرـ وـالـعـظـمـ مـاـ لـيـسـ لـغـيرـهـ،ـ وـيـحـكـمـ عـلـىـ الـأـشـيـاءـ بـالـقـيـاسـ عـلـىـ أـمـتـالـ عـلـيـاـ يـتـخـذـهـ قـاعـدـةـ لـأـحـكـامـهـ،ـ جـمـاعـ هـذـهـ الـمـعـانـيـ لـيـسـ بـكـائـنـةـ فـيـ تـضـاعـيفـ الـمـوـجـودـاتـ أـوـ ظـاهـرـاتـ الـطـبـيـعـةـ ذاتـهاـ،ـ بـلـ إـنـكـ لـاـ تـجـدـ لـهـاـ مـنـ أـثـرـ إـلـاـ فـيـ ثـيـاتـ الـعـقـلـ الـمـفـكـرـ وـحـدـهـ،ـ وـقـدـ يـصـحـ أـنـ يـكـوـنـ فـيـ مـقـدـورـ سـلـسـلـةـ مـنـ التـغـيـرـاتـ الـآـلـيـةــ الـمـيـكـانـيـكـيـةـــ غـيرـ الـعـاقـلـةـ،ـ أـنـ تـسـتـحـدـثـ أـعـدـاـدـاـ لـاـ نـهـاـيـةـ لـهـاـ،ـ أـوـ صـورـاـ لـاـ نـهـاـيـةـ لـتـنـوـعـهـاـ.

غير أن النهج الطبيعي لا يمكن أن يصبح تاريخاً إلا إذا بلغ حدّاً عنده يستطيع عقل مفكر أن يفقه منه طريقة الانتقال من حالة الوحدة إلى حالة التضاعيف والكثرة، أو أن يستوعب منه طريقة إبراز تلك الصور التنوعية الشتى، أو أن يكشف عما إذا كان من شأن تلك الظاهرة الطبيعية أن تنتج شيئاً مادياً ذا قيمة، أو أن تنتاج اتصالاً بفائدة معينة، أو أن يستشف منها ضرراً يسبب خسارة، أو نفعاً يحدث كسباً.

فالرقصاص إذ يمضي في الحركة يمنة ويسرة على نمط واحد غير ذي انتهاء، والسيار إذ يتحرك حول الشمس مكرراً حركته إلى لا آخر ولا قصد، والجوهر الفرد إذ يهتز متراوحاً في مكان معين؛ جماع هذه الأشياء لا يبعث فيها شيئاً من حب العناية بها لأبعد من معرفة القانون الرياضي الذي يضبط حركاتها، ويحملنا دائماً على أن نستوعبها عقلياً؛ أي نفكـرـ فيهاـ.

فاتحاد عدد غير متناهٍ من هذه الحركات الأولية لا يبعث فيها شيئاً من العناية به، ما لم نعتقد أن من اتحاد مثل هذا العدد قد ينتـجـ شيءـ جـديـدـ غيرـ مرـئـيـ؛ شيءـ يـنبـهـ فيهاـ الشـعـورـ بـحـسـ منـ الجـمالـ أوـ الفـائـدـ إـذـاـ عـرـفـناـهـ وـمـلـكـناـهـ، شيءـ ذوـ قـيـمةـ غالـيـةـ فيـ نـظـرـ العـقـلـ المـفـكـرـ، مـهـماـ كـانـ المعـنـىـ الـذـيـ يـؤـديـهـ لـنـاـ اـصـطـلاـحـ «ـالـعـقـلـ المـفـكـرـ»ـ كـبـيرـاـ أـمـ صـغـيرـاـ، عـظـيمـاـ أـمـ حـقـيرـاـ.

غيرـ أـنـاـ إـذـ نـنـظـرـ فـيـ الـعـالـمـ غـيرـ الـحـيـ، فـنـجـدـ أـنـ نـهـجـ الطـبـيـعـةـ فـيـ التـغـيـرـ وـعـدـ الثـبـاتـ يـبعـثـ فيهاـ شيئاًـ مـنـ اللـذـةـ وـالـعـنـاـيـةـ بـهـ، وـنـلـاحـظـ أـنـ لـذـلـكـ الـعـالـمـ تـارـيـخـاـ تـرـجـعـ مـعـرفـتـهـ كـمـاـ يـعودـ اـسـتكـناـهـ إـلـىـ عـقـلـ مـفـكـرـ يـدـوـنـهـ وـيـتـفـهـمـهـ وـيـنـمـيـهـ وـيـقـدـرـهـ، فـإـلـىـ أـيـ حدـ تـضـاعـفـ تـلـكـ اللـذـةـ، وـتـذـهـبـ هـذـهـ الـعـنـاـيـةـ، إـذـاـ مـاـ نـظـرـنـاـ فـيـ أـعـمـالـ الـعـالـمـ الـإـنـسـانـيـ؛ حـيـثـ يـصـبـحـ الـإـنـسـانـ أـوـلـ مـصـدرـ لـلـعـملـ، فـضـلـاـ عـنـ أـنـهـ الـقـوـةـ الـمـفـكـرـةـ وـيـنـبـعـهـاـ، مـاـ دـامـ ذـاكـ مـبـلـغـ لـذـنـتـاـ وـعـنـيـاتـنـاـ مـنـ النـظـرـ فـيـ الـعـالـمـ غـيرـ الـحـيـ!

فـإـذـاـ لـمـ يـكـنـ فـيـ مـسـطـطـاعـ السـنـينـ وـتـعـاقـبـهـاـ، وـالـعـصـورـ وـتـلـاحـقـهـاـ، أـنـ تـُـحـدـثـ تـغـيـرـاـ، وـإـذـاـ لـمـ يـكـنـ فـيـ مـقـدـورـ سـنـنـ الـوـجـودـ وـنـظـامـ الـحـيـاةـ إـلـاـ أـنـ يـتـكـرـرـ وـقـوـعـهـاـ عـلـىـ نـمـطـ وـاحـدـ غـيرـ مـتـنـاهـ؛ فـلـاـ جـرـمـ أـنـ هـذـالـكـ يـتـعـطـلـ التـارـيـخـ، وـيـمـسـكـ عـنـهـ أـنـ يـبـعـثـ فيهاـ مـنـ اللـذـةـ مـاـ يـسـوـقـنـاـ إـلـىـ الـعـنـاـيـةـ بـهـ؛ فـإـنـ لـقـبـائـلـ أـفـرـيقـيـةـ الـمـسـتوـحـشـةـ تـارـيـخـاـ، وـلـكـنـ تـارـيـخـهاـ قـدـ يـصـبـحـ مـعـرـوفـاـ بـرـمـيـةـ إـذـاـ وـقـفـنـاـ عـلـىـ نـظـامـ حـيـاتـهـمـ الـيـوـمـيـةـ أـوـ السـنـوـيـةـ عـلـىـ الـأـقـلـ، أـوـ نـظـامـ حـيـاتـهـمـ خـلـالـ جـيـلـ عـلـىـ الـأـكـثـرـ.

كـذـلـكـ الـحـالـ فـيـ بـلـادـ الـصـينـ، فـإـنـ مـاـ فـيـ الـحـيـاةـ الـصـينـيـةـ مـنـ مـظـاهـرـ السـكـونـ وـعـدـ التـقـدـمـ تـجـعـلـ تـارـيـخـهـمـ مـقـتـضـيـاـ ضـئـيلـاـ عـلـىـ الرـغـمـ مـاـ فـيـهـ مـنـ التـعـقـيدـ وـالـاختـلاـطـ؛ فـإـنـ الـأـوـفـاـ مـنـ الـأـعـوـامـ تـمـضـيـ عـلـىـ بـلـادـ الـصـينـ لـاـ تـسـدـ مـنـ فـرـاغـ التـارـيـخـ أـكـثـرـ مـاـ تـسـدـ أـيـامـ مـعـدـودـةـ فـيـ تـارـيـخـ أـورـوبـاـ الـحـدـيثـ، أـوـ كـمـاـ يـقـولـونـ شـعـرـاـ:

خمسـونـ عـامـاـ مـنـ حـيـاةـ أـورـوبـاـ خـيـرـ مـنـ دـورـةـ شـمـسـيـةـ فـيـ غـيرـهـاـ.

لذلك نرى أن الفكر من طريقين اثنين ذو فائدة كبيرة وشأن عظيم للمؤرخين؛ فإننا إذ ننظر في كل تغير يحدث في الطبيعة، أو تبديل يقع في عالم الحياة الإنسانية نتساءل: أي أثر أحدث ذلك التغير في عالم الفكر؟ وأية فائدة أو ضرر أو تقدم قد أحدث في عقول الناس الذين هم كاشفو خباياه وملحوظو آثاره؟ وهل ضاعف من معلوماتنا؟ وهل زاد إلى مجموعة أفكارنا وأرائنا؟ وهل زادنا بعدها في النظر، وإنعاناً في التغلغل إلى صميم الحقائق؟ وهل أوسع من آمالنا وقوّى من عواطفنا؟ وبالجملة: هل أضاف جديداً إلى مصالحنا ولذاتنا؟ وهل أوسع من حيواتنا الداخلية: حياة الفكر، فجعلها أكثر امتلاء وأقل فراغاً؟

أما إذا نظرنا في التغير واقعاً في الأعمال الإنسانية ونتائجها؛ فإننا نتساءل: ماذا كان أثر الفكر، عالم الحياة الداخلي، في إحداث ذلك التغير؟ وفي هذين السؤالين وحدهما ينحصر واجب المؤرخ إذا ما أراد أن يُؤرخ في عالم الفكر الخفي.

ولا أظن أن هنالك ضرورة تقضي على في هذا المقام أن أبْيَن عن هذا الاصطلاح – اصطلاح الفكر – محيطاً بمعناه من كل أطرافه، وفضلاً عن بُعد ذلك عن الضرورة، فإني أعتقد أن ذلك خارج عن طوق تجاربينا. وقد يساق الكثيرون إلى المطالبة بتعريف للفكر، أو بيان أكثر من التعريف دقة في إظهار الصلة الواقعة بين الطبيعة والحياة والفكر، على أن أمثال هذه التعريفات يجب أن تُترك للقارئ ذاته، إذا ما شَعَرَ بأن هناك حاجة تقضي عليه بأن يضع – خلال تفهمه لهذا الكتاب<sup>١</sup> وما انطوى عليه – نظريات ذاتية يستخلصها من هذه المسائل في مجموعة.

فَوضَعَ أي تعريف في مثل هذه الحال قد يحوطنا بكثير من أسباب التناقض غالباً ما تقضي بنا إلى التهوش والفوبي. وإنني لأعتمد في ذلك على ما تؤدي كلمة «الفكر» ذاتها من المعنى عاماً غير محدودة بتعريف، على اعتبار أنها تنتقل إلى كل من الناس معنى ذاتياً يدركه بنفسه، معنى يُؤَهِّل به إلى فهم هذه القضية العامة التي بدأنا البحث بالنظر فيها، أو يسوقه إلى الاعتقاد بوجود عالم خفي يقع وراء عالم الحوادث والحقائق البارزة، حتى يستيقن من أن لذلك العالم الخفي طبيعة دائمة التغيير، مستمرة الحركة، أو يدفع به إلى الإيمان بأن هنالك علاقة وصللة بين هذين العالمين، وأن كلاً منهما يحدث في نظيره أثراً هو نتيجة عكسية لفعل أحدهما في الآخر.

<sup>١</sup> كتاب تاريخ الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر.

والعالم الخفي، سواءً أكان من ناحية الوجود الزمانـيـ، أمـ منـ نـاحـيـةـ الـخـطـورـةـ والـشـأنـ، هوـ المـقـدـمـ عـلـىـ الـعـالـمـ الـظـاهـرـ، وسواءً أـكـانـ ماـ نـسـبـ مـنـ الـمـكـانـةـ وـالـشـأنـ لـحـيـزـ الـاستـدـلـالـ وـالـاسـتـنـتـاجـ فـيـ عـالـمـ الـفـكـرـ، عـلـىـ مـاـ فـيـ ذـلـكـ الـحـيـزـ مـنـ الـجـلـاءـ وـالـوضـوحـ، مـساـوـيـاـً أوـ غـيرـ مـساـوـيـاـً مـاـ نـسـبـهـ إـلـىـ حـيـزـ الـإـحـسـاسـ وـالـتـصـورـ، مـشـفـوـعـاـ بـحـيـزـ الـانـفـعـالـاتـ غـيرـ الـمـذـرـكـةـ، عـلـىـ مـاـ فـيـهـ مـنـ الـغـمـوـضـ وـالـإـبـهـامـ، فـعـامـةـ ذـاـ مـسـائـلـ لـيـسـ مـنـ الـضـرـوريـ أـنـ نـجـيـبـ عـلـيـهـ فـيـ هـذـاـ الـمـوـطـنـ؛ إـذـ يـكـفـيـ أـنـ نـشـيـرـ إـلـىـ جـوـدـ عـالـمـ الـحـيـةـ وـالـفـكـرـ؛ لـيـعـرـفـ بـذـلـكـ الـبـاحـثـونـ أـنـنـاـ لـاـ نـعـنـيـ بـعـالـمـ الـفـكـرـ تـلـكـ الـآـرـاءـ ذـوـاتـ الـتـعـارـيفـ الـمـحـدـودـةـ الـجـلـيـةـ الـمـنظـومـةـ فـيـ سـلـسلـةـ مـاـ فـحـسـبـ، بلـ نـشـفـعـهـ بـعـالـمـ الـرـغـبـاتـ وـالـانـفـعـالـاتـ وـالـإـحـسـاسـ وـالـتـصـورـ، تـلـكـ الـتـيـ تـؤـثـرـ فـيـ حـيـاتـنـاـ الدـاخـلـيـةـ، حـيـةـ النـفـسـ الـخـالـدـةـ، تـأـثـيـرـهـاـ فـيـ الـعـالـمـ الـخـارـجـيـ.

وسـوـفـ أـسـوـقـ الـبـحـثـ مـتـحـديـاـ هـذـاـ الـمـعـنـىـ فـيـ كـلـ مـاـ سـوـفـ أـسـطـرـ فـيـ هـذـاـ الـعـجـالـةـ مـنـ الـكـلـامـ فـيـ تـارـيـخـ الـفـكـرـ، مـقـصـورـاـ عـلـىـ عـصـورـهـ وـلـيـسـ فـيـ تـارـيـخـ الـفـكـرـ عـامـةـ، سـأـقـصـرـ الـبـحـثـ فـيـ تـارـيـخـ الـفـكـرـ الـإـنـسـانـيـ عـلـىـ هـذـاـ الـعـصـرـ<sup>٢</sup>ـ الـذـيـ نـعـيـشـ فـيـهـ، مـشـفـوـعـاـ بـلـمـحةـ فـيـ الـعـصـرـ الـذـيـ سـبـقـهـ مـبـاـشـرـةـ، وـهـوـ الـعـصـرـ الـذـيـ يـعـيـشـ فـيـهـ كـاتـبـ هـذـهـ الـكـلـمـاتـ وـقـرـاؤـهـ، عـصـرـ لـهـمـ بـهـ إـلـامـ وـعـلـمـ مـبـاـشـرـ، وـذـكـرـيـاتـ قـدـ تـكـونـ صـحـيـحةـ، وـقـدـ تـكـونـ غـيرـ ذـلـكـ. كـانـ هـذـاـ الـاعـتـبـارـ أـكـبـرـ سـبـبـ حـمـلـنـيـ عـلـىـ أـنـ أـفـرـغـ قـصـارـيـ جـهـدـيـ فـيـ بـحـثـ تـارـيـخـ هـذـاـ الـعـصـرـ دـوـنـ غـيرـهـ مـنـ تـارـيـخـ الـفـكـرـ الـإـنـسـانـيـ، مـقـنـعـاـ بـأـنـيـ وـقـرـائـيـ أـكـثـرـ مـعـرـفـةـ بـهـذـاـ الـعـهـدـ عـلـىـ مـاـ يـظـهـرـ لـيـ مـنـ أـيـ عـهـدـ آـخـرـ، إـذـ تـسـنـيـ لـيـ أـنـ أـمـضـيـ فـيـ بـحـثـهـ عـلـىـ الـطـرـيـقـةـ الـمـثـلـ. وـلـماـ كـانـ كـلـ شـخـصـ هـوـ أـقـدـرـ النـاسـ عـلـىـ كـتـابـةـ تـارـيـخـ حـيـاتـهـ، كـذـلـكـ يـغـلـبـ عـلـىـ الـظـنـ أـنـ أـبـنـاءـ كـلـ عـصـورـ – عـلـىـ اـعـتـبـارـ ماـ – هـمـ أـثـبـتـ مـنـ يـحـيـطـونـ بـتـارـيـخـ الـفـكـرـ فـيـهـ.

ولـقـدـ قـامـ الـكـثـيـرـونـ يـنـاهـضـونـ هـذـهـ النـظـرـيـةـ مـنـاهـضـةـ كـانـ مـقـدارـهـاـ فـيـ كـلـ الـحـالـاتـ رـهـنـاـًـ عـلـىـ مـاـ هـوـ وـاقـعـ بـيـنـ الـحـوـادـثـ الـخـارـجـيـةـ مـنـ الـأـثـرـ، تـلـكـ الـحـوـادـثـ الـتـيـ يـلـحـقـهاـ كـثـيرـ مـنـ الـكـتـابـ بـالـتـارـيـخـ اـعـتـبـارـاـًـ إـسـرـافـاـًـ، وـيـقـالـ: إـنـ الـمـعاـصـرـيـنـ مـنـ الـكـتـابـ إـذـ يـؤـرـخـونـ فـيـ عـصـورـهـمـ لـاـ يـتـخـطـونـ مـنـ الـتـارـيـخـ حـدـ تـدوـينـ الـحـوـادـثـ نـاظـرـيـنـ فـيـهـاـ مـنـ نـاحـيـةـ وـاحـدةـ، فـتـخـرـجـ مـنـ بـيـنـ أـيـدـيـهـمـ نـاقـصـةـ بـتـراءـ، وـالـحـقـيـقـةـ أـنـ الـمـؤـرـخـ أـحـوـجـ مـاـ يـكـوـنـ إـلـىـ اـسـتـيـرـادـ أـكـبـرـ عـدـ مـمـكـنـ مـنـ الـمـدـوـنـاتـ الـمـتـنـوـعـةـ؛ لـأـنـ أـصـحـ الـمـدـوـنـاتـ الـتـارـيـخـيـةـ وـأـقـرـبـهـاـ إـلـىـ الـحـقـيـقـةـ هـيـ

التي تخرج من فكر أكثر الناس قدرة على الجمع بين شتات هذه المدونات، فيجعلها كًما واحدًأ، فيستطيع بذلك أن يتجنب مواضع الزلل التي كثيراً ما تتغلغل إلى صميم الأبحاث من الإكباب على ناحية واحدة من نواحي النظر الفكري يعكف عليها الكاتبون، ويمكنه أن يتتكب بذلك سبيـلـ العمـاـيـةـ فـيـ اـسـتـقـصـاءـ نـواـحـيـ الـاسـتـبـصـارـ،ـ وـأـنـ يـبعـدـ جـهـدـ الـبـعـدـ عـنـ الجـهـلـ الشـخـصـيـ وـالـتـخـبـطـ،ـ وـالـحـكـمـ عـلـىـ الـأـشـيـاءـ بـمـجـرـدـ اللـذـةـ وـالـهـوـيـ.

على الرغم من هذه النـقـائـصـ وـأـمـالـهـاـ،ـ فإنـ مـدوـنـاتـ الـمـعاـصـرـينـ قدـ ظـلـلتـ طـوـالـ الـأـعـصـرـ وـسـتـظـلـ —ـ أـثـمـنـ مـصـدـرـ،ـ وـأـوثـقـ مـنـهـ يـعـتـلـ مـنـهـ مـؤـرـخـ الـعـصـورـ الـمـسـتـقـبـلـةـ،ـ الـذـيـنـ هـمـ الـجـائزـ أـنـ يـصـلـوـاـ إـلـىـ تـمـحـيـصـ بـرـاهـيـنـهـاـ،ـ وـالـفـحـصـ عـنـ أـسـانـيدـهـاـ،ـ فـيـجـمـعـونـ بـيـنـ شـتـاتـهـاـ،ـ وـيـظـهـرـونـ مـوـاضـعـ الـنـفـعـ فـيـهـاـ،ـ فـتـمـخـضـ عـنـ صـورـةـ مـنـ الـتـارـيخـ أـكـثـرـ ثـبـاتـاـ،ـ وـأـبـعـدـ دـقـةـ،ـ مـنـ صـورـ الـعـصـورـ الـتـيـ تـتـقـدـمـهـاـ،ـ بـيـدـ أـنـ مـدوـنـاتـ الـلـاحـقـيـنـ إـذـ تـكـوـنـ قـيـمـتـهـاـ مـحـدـودـةـ بـعـصـرـ ماـ،ـ فـإـنـ تـارـيخـ الـمـعاـصـرـينـ،ـ أـهـلـ الـشـهـادـةـ لـاـ وـقـعـ فـيـ عـصـورـهـمـ،ـ عـلـىـ مـاـ يـكـوـنـ فـيـهـاـ مـنـ السـذـاجـةـ وـالـإـطـنـابـ،ـ بـلـ وـمـنـ التـاقـضـ،ـ سـوـفـ تـبـزـ —ـ بـعـدـ مـضـيـ الـمـئـاتـ وـالـأـلـفـ مـنـ السـنـينـ مـنـ حـيـثـ الـبـقاءـ وـالـثـبـاتـ وـالـقـيـمةـ —ـ مـدوـنـاتـ الـلـاحـقـيـنـ عـلـىـ مـاـ سـيـكـونـ فـيـهـاـ مـنـ آـثـارـ الـجـدـ وـالـجـهـدـ الـفـتـيـ؛ـ لـأـنـ مـدوـنـاتـهـمـ سـوـفـ تـكـوـنـ نـتـاجـاـ لـاـ يـبـعـثـهـ فـيـهـمـ وـحـيـ عـصـرـ غـيـرـ عـصـرـهـمـ،ـ وـاقـتـنـاعـ بـضـرـوبـ مـنـ الـأـحـكـامـ الـعـامـةـ لـيـسـتـ مـنـ نـتـاجـ أـفـكـارـهـمـ،ـ أوـ كـمـاـ لـاحـظـ جـوـتهـ إـذـ قـالـ:

إنـ التـارـيخـ يـجـبـ أـنـ يـعـادـ تـدوـينـهـ مـنـ حـيـنـ إـلـىـ حـيـنـ،ـ لـأـنـ حـقـائـقـ كـثـيرـةـ تـكـوـنـ قدـ عـرـفـتـ عـلـىـ مـرـّـ الـأـيـامـ،ـ بـلـ لـأـنـ أـوـجـهـاـ مـنـ النـظـرـ قدـ تـظـهـرـ فـيـ أـفـقـ الـبـحـثـ العـقـليـ،ـ وـلـأـنـ الـمـعاـصـرـينـ الـذـيـنـ هـمـ ذـوـوـ ضـلـعـ كـبـيرـ فـيـ تـقـدـمـ عـصـورـهـمـ وـارـتقـائـهـ،ـ يـسـاقـونـ دـائـمـاـ إـلـىـ غـيـاـتـ يـنـتـهـونـ بـهـاـ إـلـىـ حـيـثـ تـصـبـ ذـاتـ صـبـغـةـ يـقـنـدـرـ بـهـاـ عـلـىـ تـدـبـرـ الـمـاضـيـ وـالـحـكـمـ عـلـىـ بـصـورـةـ لـمـ تـكـنـ مـعـرـوفـةـ مـنـ قـبـلـ.

إنـ كـثـيرـاـ مـنـ كـتـابـ الـتـارـيخـ،ـ الـذـيـنـ أـنـبـيـتـهـمـ هـذـاـ الـعـصـرـ،ـ سـوـفـ يـظـلـونـ قـرـونـاـ عـدـيدـةـ مـوـضـعـ الـفـائـدـةـ وـمـرـجـعـ الـجـاذـبـيـةـ الـعـامـةـ،ـ كـمـؤـرـخـينـ أـبـرـزـواـ لـلـعـالـمـ مـنـ الـعـدـمـ أـسـالـيـبـ جـديـدةـ مـنـ الـبـحـثـ،ـ وـأـنـتـحـواـ مـنـ النـظـرـ نـواـحـيـ مـبـكـرـةـ فـيـ السـيـاسـةـ وـالـاجـتمـاعـ وـالـرـقـيـ الـأـدـبـيـ أـكـثـرـ مـنـهـمـ مـقـرـرـيـ حـوـادـثـ وـمـدـونـيـ وـقـائـعـ يـمـكـنـ الـاعـتـمـادـ عـلـيـهـاـ،ـ وـالـثـقـةـ بـهـاـ،ـ وـإـنـ طـرـيـقـةـ النـظـرـ الـمـوـضـعـيـ Objective Methodـ الـتـيـ يـعـكـفـ عـلـيـهـاـ الـبـعـضـ مـنـهـمـ،ـ سـوـفـ يـنـظـرـ إـلـيـهـاـ لـاـ كـطـرـيـقـةـ اـبـتـغـواـ بـهـاـ التـحرـرـ مـنـ آـثـارـ التـقـيـدـ وـالـتـقـلـيدـ،ـ وـلـكـنـ كـطـرـيـقـةـ لـمـ يـشـعـرـواـ لـدـىـ إـكـبـابـهـمـ عـلـيـهـاـ بـاـمـاـ أـوـحـيـ لـهـمـ مـنـ قـبـلـ تـخـيلـهـمـ وـوـهـمـهـمـ الـذـيـ يـتـحـكـمـ فـيـهـمـ التـحـكـمـ كـلـهـ.

غير أن الحقائق التاريخية التي يرجع تدوينها ونقدتها إلى عقول عاصرت وقوع تلك الحوادث لها فائدة مزدوجة في الكشف عن حقائق العصر الذي وقعت فيه، فإن الحوادث والعقول التي تنصرف إلى التأمل فيها، كلاهما يكمـلـ نـقـائـصـ الآخـرـ فيـ إـخـرـاجـ صـورـةـ أـكـثـرـ كـمـالـاـ،ـ وأـقـرـبـ إـلـىـ التـامـ رـحـماـ.ـ وـشـأنـ الـحـوـادـثـ وـالـعـقـولـ فـيـ ذـلـكـ كـشـأنـ المـادـةـ وـالـوـجـهـةـ التـيـ يـُـنـظـرـ إـلـىـ المـادـةـ مـنـ نـاحـيـتـهـ فـيـ تـبـيـعـتـهـ لـزـمـانـ وـاحـدـ.

من هنا نسلم بأن المؤرخين أمثال «ثيوسيديد» و«تاسيتوس» و«ماكيافيلي» عبارة عن نماذج كاملة في فن كتابة التاريخ، وأن المذكرات التي يخالفها سياسيو العصور الحديثة عادةً أثمن قيمة، وأبعد فائدة، وأطول بقاء من تلك القصص الموصولة بالحوادث، المحبوكة الأطراف التي يكتبها مؤرخون لا صلة لهم بالزمان الذي يؤمنون فيه، رغم ما يصرفون فيها من الجهد والعناء.

أما وقد انتهى بنا البحث إلى أن مدونات المعاصرين للحوادث ذات قيمة خاصة بها مهما كان في تلك المدونات في منازع النقص، فلا خال أن يكون تدوين الأفكار إلا أبلغ من تدوين الحوادث خطراً، وأبعد نفعاً، وأعمق فائدة، لا سيما إذا أخذ «الفكر» على أنه الحياة الداخلية الكامنة لعصر من العصور، ولم يقتصر معناه على ذلك الجزء الذي يدل على الفكر المحدود القاصر في الدلالـةـ عـلـىـ مـنـتـجـاتـ الأـقـلـامـ خـلـالـ زـمـانـ ماـ مـنـ الـأـزـمـانـ؛ـ ذـلـكـ لأنـ جـزـءـاـ عـظـيمـاـ مـنـ تـلـكـ الـحـيـاـةـ الـدـاخـلـيـةـ الـكـامـنـةـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـبـلـغـ مـنـهـ أـحـدـ بـفـهـمـ أوـ مـعـرـفـةـ،ـ إـلـاـ شـخـصـاـ اـشـتـرـكـ فـيـ تـكـوـيـنـهـ وـمـتـلـلـ فـيـهـ مـنـ أـوـجـهـ الـحـيـاـةـ دـوـرـاـ.

الآمال الغامضة المبهمة التي تجيش في صدور الآلاف المؤلفة من أبناء آدم وهم عاجزون عن إقناع شهوتها، أو التعبير عن حقيقتها، والسقطات والهزائم التي تمر في عالم الحياة من غير أن يعرفها أحد، أو يهتم بها إنسان، والرغبات التي تعيش في صدور الناس ممتدة في سلسلة من التواصل والتتابع غير متناهية، أو تتشكل بصورة ما من صور حياتهم، والمحاولات التي يتثبت بها الناس ابتعاد الوصول إلى حل المشكلات العلمية التي يملئها الطمع عليهم، أو تبعث بها الحاجة في النفوس، وتلك الساعات الطويلة التي ينفقها محبو العلم سدى؛ طمـعاـ فيـ الـوقـوفـ عـلـىـ أـسـرـارـ الطـبـيـعـةـ –ـ جـمـاعـ هـذـهـ الـمـجـهـودـاتـ الـمـخـبـوـةـ فيـ نـوـاحـيـ الـنـسـيـانـ تـكـوـنـ ذـلـكـ الـهـيـكـلـ الـذـيـ نـسـمـيـهـ «ـفـكـرـ الـأـمـةـ»ـ،ـ وـلـاـ يـطـفـوـ مـنـهـ عـلـىـ سـطـحـ الـحـيـاـةـ إـلـاـ جـزـءـ ضـئـيلـ بـارـزـ فـيـ صـورـةـ مـنـ الـأـدـبـ،ـ أـوـ الـعـلـمـ،ـ أـوـ الـشـعـرـ،ـ أـوـ الـفـنـ،ـ أـوـ الـمـنـتـجـاتـ الـمـادـيـةـ الـخـاصـةـ بـفـتـرـةـ مـاـ مـنـ فـتـرـاتـ الـزـمـانـ.

وإن لدينا شيئاً آخر لا يقل عما سبق القول فيه قدرًا، وإن كان أقل منه ظهوراً للناس؛ فإن ذلك القدر العظيم من الفكر «الكامن» لـهـوـ الـذـيـ أـتـمـ النـضـجـ،ـ وـهـوـ الـذـيـ اـسـتـجـمـعـ موـادـ

الإشعاع الفكري وجعلها على أهبة الإضاءة إن أشعل فتيلها شرارة من الانبعاث في التأمل والعمل. إن «الفكر الكامن» عبارة عن القوة الدافعة العظيمة التي تستخرنها الأزمان، وتظل مستخرذنة حتى تفك عقالها العقريفة والكافاءاتُ الفردية، فتنبعث في سبيل الحرية والنشاط.

لقد عرّفنا الفلسفـةـ عـنـ دـمـارـ ماـ فـيـ الـحـيـاـةـ الـعـضـوـيـةـ مـنـ أـوـجـهـ الإـسـرـافـ،ـ خـبـرـوـنـاـ عـنـ الـآـلـافـ الـمـؤـلـفـةـ مـنـ الـجـرـاثـيمـ الـتـيـ تـولـدـ وـتـتـلـاشـيـ عـبـيـاـ،ـ وـعـنـ دـمـارـ ماـ يـنـتـشـرـ مـنـ الـحـبـ سـدـيـ.ـ وـالـظـاهـرـ أـنـ لـلـمـجهـودـ الـعـقـليـ وـالـأـدـبـيـ حـظـاـ مـنـ الإـسـرـافـ وـالـعـبـثـ لـاـ يـقـلـ عـنـ حـظـ الـحـيـاـةـ الـعـضـوـيـةـ،ـ غـيرـ أـنـاـ إـنـاـ تـأـمـلـنـاـ فـيـ الـحـيـاـةـ الـعـقـلـيـةـ هـمـسـ فـيـ رـوـعـنـاـ اـعـتـقـادـ يـقـنـعـنـاـ بـأـنـ مـبـدـأـ تـعـاـونـ الـأـكـثـرـيـةـ،ـ لـاـ مـبـدـأـ التـضـحـيـةـ الـفـرـدـيـةـ،ـ هـوـ السـرـ فـيـ نـجـاحـ الـأـقـلـيـةـ،ـ وـأـنـ الـإـتقـانـ وـلـيدـ الـجـهـدـ الـمـشـرـكـ،ـ وـأـنـ الـكـثـيـرـيـنـ لـاـ بـدـ مـنـ أـنـ تـبـدـدـ حـيـاتـهـمـ لـيـصـلـ وـاحـدـ إـلـىـ الـغـرـضـ.

أـيـ شـعـورـ آـخـرـ غـيرـ هـذـاـ فـيـ مـكـنـتـهـ أـنـ يـصـبـحـ سـلـوـيـ أـوـلـئـكـ الـأـمـنـاءـ الشـجـعـانـ،ـ الـذـينـ أـنـفـقـوـاـ أـعـمـارـهـمـ اـبـتـقاءـ الـوصـولـ إـلـىـ حـلـ مـجـمـوعـةـ الـمـشـكـلـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ،ـ عـلـىـ مـاـ فـيـهـاـ مـنـ مـظـاهـرـ الـاستـعـصـاءـ،ـ وـعـلـىـ مـاـ يـحـفـ بـهـاـ مـنـ الـمـشـكـلـاتـ؟ـ أـيـ سـلـوـيـ غـيرـ هـذـهـ لـأـلـئـكـ الـذـينـ يـعـمـلـوـنـ عـلـىـ اـسـتـصـالـ جـذـورـ الـرـذـائـلـ وـالـتـعـاـسـةـ الـتـيـ تـفـيـضـ بـهـاـ الـحـيـاـةـ فـيـ الـمـدـنـ الـعـظـمـيـ؟ـ أـوـ لـلـذـينـ يـقـومـوـنـ صـارـخـيـنـ فـيـ وـجـهـ الـمـسـتـبـدـيـنـ مـنـادـيـنـ بـحـرـيـةـ الـشـعـوبـ الـمـسـتـعـبـدـةـ؟ـ أـوـ لـلـذـينـ يـبـشـرـوـنـ بـالـسـلـامـ عـالـمـيـنـ عـلـىـ قـتـلـ رـوـحـ الـحـرـبـ وـالـعـسـكـرـيـةـ؟ـ أـيـ شـيـءـ فـيـ الـعـالـمـ أـكـثـرـ تـرـوـيـجـاـ عـلـىـ نـفـسـ مـؤـلـفـ يـنـفـقـ نـصـفـ عمرـهـ فـيـ تـأـلـيفـ كـتـابـ يـخـرـجـ مـنـ آـلـةـ الطـبـاعـةـ مـيـتاـ مـنـبـوـذـاـ،ـ أـكـثـرـ مـنـ اـعـتـقـادـهـ بـأـنـ كـاتـبـاـ آـخـرـ غـيرـهـ قـدـ يـنـجـحـ فـيـ الـمـسـتـقـبـلـ فـيـمـاـ أـخـفـقـ فـيـهـ الـيـوـمـ،ـ وـأـنـ إـخـفـاقـهـ لـيـسـ إـلـاـ جـزـءـاـ مـنـ الـجـهـدـ الـكـامـنـ الـذـيـ سـوـفـ يـكـونـ حـجـراـ فـيـ بـنـاءـ الـتـعـاـوـنـ فـيـ سـبـيلـ إـبـرـازـ غـرضـ نـافـعـ؟ـ

غـيرـ أـنـ يـحقـ لـنـاـ أـنـ تـنـسـاعـلـ فـيـ مـسـطـطـاعـ مـنـ مـنـ النـاسـ أـنـ يـكـتـبـ تـارـيـخـ ذـلـكـ الـجـهـدـ الـكـامـنـ الـمـخـبـوـءـ فـيـ ثـنـيـاـيـاـ الـفـكـرـ الـعـامـ لـأـمـةـ مـنـ الـأـمـمـ؟ـ مـنـ مـنـ الـبـاحـثـيـنـ قـدـ خـصـ بـقـدرـ مـنـ الـحـسـاسـيـةـ الـنـفـسـيـةـ يـمـكـنـهـ مـنـ أـنـ يـدـرـكـ بـشـعـورـهـ وـبـصـيرـتـهـ الـخـفـيـةـ،ـ فـيـ أـيـةـ نـاحـيـةـ مـنـ نـواـحـيـ الـحـيـاـةـ كـانـ ضـغـطـ الـحـوـادـثـ أـشـدـ أـثـرـاـ،ـ وـفـيـ أـيـهـاـ كـانـ الـجـهـدـ الـإـنـسـانـيـ أـطـلـ مـدـىـ،ـ قـبـلـ أـنـ يـنـبـقـ فـجـرـ الـحـيـاـةـ الـجـديـدـةـ؟ـ مـنـ مـنـ الـمـفـكـرـيـنـ قـدـ يـبـلـغـ خـيـالـهـ وـتـصـورـهـ مـبـلـغاـ يـمـكـنـهـ مـنـ تـتـبعـ تـلـكـ الـخـيـوطـ الـمـشـعـةـ فـيـ عـقـلـ الـأـمـمـ،ـ وـالـتـيـ تـتـجـمـعـ فـيـ عـقـلـيـتـهـاـ الـكـامـنـةـ حـالـاـ بـعـدـ حـالـ،ـ بـعـدـ أـنـ تـسـطـعـ أـصـوـاءـ الـحـيـاـةـ بـنـتـائـجـ الـجـهـدـ الـمـشـرـكـ؟ـ

نـحنـ الـذـينـ نـعـيـشـ مـتـرـقـبـيـنـ إـشـعـاعـ الـضـوءـ مـحـوطـيـنـ بـمـاـ يـغـشاـهـ مـنـ الـعـقـبـاتـ وـالـمـتـابـعـ،ـ نـحنـ الـجـنـوـدـ الـمـحـارـبـوـنـ فـيـ سـبـيلـ الـحـقـ،ـ الـمـنـفـقـوـنـ حـيـاتـنـاـ وـجـهـوـدـنـاـ فـيـ جـوـفـ الـمـعرـكـةـ،ـ لـاـ بـعـدـ

انتهائـهاـ،ـ نـحنـ الـذـينـ يـحـقـ لـنـاـ أـنـ نـفـخـ بـأـنـ فـيـ قـدـرـتـنـاـ أـنـ نـرـوـيـ مـنـ مـنـازـعـ الـآـمـالـ الـجـائـشـةـ فيـ الصـدـورـ،ـ وـمـنـ أـوـجـهـ الـجـهـودـ الـتـيـ قـامـ بـهـاـ كـثـيرـ مـنـ أـبـطـالـ الـحـيـاةـ الـفـكـرـيـةـ،ـ وـمـنـ تـشـعـبـ نـواـحـيـ الـفـكـرـ،ـ رـوـاـيـةـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـحـقـ رـحـمـاـ،ـ وـأـصـدـقـ قـوـلـاـ،ـ وـأـثـبـ تـأـوـيـلـاـ.

عـلـىـ أـنـ لـدـنـاـ مـسـأـلـةـ أـخـرـىـ نـجـدـ فـيـ بـحـثـهـاـ لـذـةـ وـخـطـرـاـ،ـ قـدـ نـتـسـأـلـ إـلـىـ أـيـ عـصـرـ مـنـ الـعـصـورـ الـمـاضـيـ نـسـتـطـيـعـ نـحـنـ،ـ الـذـينـ عـشـنـاـ خـلـالـ النـصـفـ الـأـخـيـرـ مـنـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ،ـ أـنـ نـرـجـعـ بـتـارـيـخـ عـهـدـنـاـ الـذـيـ نـفـخـ بـأـنـاـ أـوـقـفـ الـنـاسـ عـلـىـ خـبـيـاـهـ،ـ وـأـعـلـمـهـ بـمـاـ فـيـهـ؟ـ لـاـ مـرـيـةـ فـيـ أـنـاـ نـعـرـفـ أـنـ آـبـاءـنـاـ وـأـجـادـانـاـ الـأـقـرـبـيـنـ هـمـ الـذـينـ شـاهـدـوـ الـحـمـلـةـ الـإـنسـانـيـةـ الـتـيـ قـامـتـ لـلـقـضـاءـ عـلـىـ تـجـارـةـ الـرـقـيقـ وـاقـتـنـاءـ الـعـبـيـدـ،ـ بـلـ اـشـتـرـكـواـ فـيـهـاـ،ـ هـمـ رـجـالـ الـأـجيـالـ الـذـينـ قـامـواـ بـأـكـبـرـ قـسـطـ مـنـ إـلـصـاـحـ الـحـدـيـثـ،ـ هـمـ الـذـينـ عـرـكـواـ ذـلـكـ الـانـقـلـابـ الـمـبـيـنـ الـذـيـ أـحـدـهـ اـسـتـخـدـمـ الـبـخـارـ وـالـغـازـ،ـ كـمـ أـنـهـمـ مـنـ الـذـينـ أـخـذـوـ بـضـلـعـ فـيـ حـرـكـةـ الـتـعـلـيمـ وـنـشـرـهـ فـيـ أـنـحـاءـ الـأـرـضـ.

هـمـ الـذـينـ شـهـدـوـ ثـوـرـةـ الـأـلـمـانـيـاـ ضـدـ الـاسـتـبـادـ الـبـوـنـاـبـارـتـيـ،ـ وـأـدـرـكـهـمـ «ـجـوـتهـ»ـ فـيـ عـنـفـوـانـ رـجـولـتـهـ،ـ فـهـزـتـ عـبـرـيـتـهـ أـعـماـقـ نـفـوسـهـمـ،ـ وـأـخـذـوـ بـضـلـعـ فـيـ إـحـدـاثـ طـورـ الـاـنـتـقـالـ الـذـيـ أـدـرـكـ الـأـدـبـ،ـ فـأـطـلـقـوـ مـنـ قـيـودـ الـعـصـورـ الـأـوـلـىـ وـاحـتـذـاءـ أـمـثـلـةـ الـقـدـماءـ إـلـىـ سـلاـسـةـ الـذـوقـ الـحـدـيـثـ،ـ وـمـسـهـمـ مـنـ شـعـرـ «ـبـيـرـوـنـ»ـ مـاـ يـمـسـ الـقـلـوبـ فـيـصـهـرـهـاـ حـرـهـ،ـ أـوـ يـتـلـجـهـاـ قـرـهـ،ـ وـأـنـصـتـوـ لـفـوـهـيـ الـخـطـبـاءـ الـذـيـ أـنـبـتـهـمـ الـثـوـرـةـ الـفـرـنـسـيـةـ الـثـالـثـةـ،ـ وـرـوـواـ لـنـاـ مـاـ كـانـ مـنـ سـحـرـ نـابـوليـوـنـ الـأـوـلـ عـلـىـ الـمـلـاـيـنـ الـذـينـ مـضـوـيـنـ بـهـ مـعـجـبـيـنـ،ـ وـلـهـ خـاطـعـيـنـ.

إـنـ الشـطـرـ الـأـعـظـمـ مـنـ تـلـكـ الصـورـ الشـتـىـ لـاـ تـعـيـشـ بـيـنـاـ الـيـوـمـ إـلـاـ فـيـ قـالـبـ مـنـ الـقـصـصـ يـرـوـيـهـ الـذـينـ عـاصـرـوهـاـ،ـ أـوـ فـيـ صـدـورـ الـذـينـ شـهـدـوـهـاـ وـامـتـ بـهـمـ أـجـلـهـمـ لـيـرـوـواـ بـأـنـفـسـهـمـ أـخـبـارـهـاـ،ـ وـلـمـ يـتـمـ إـلـاـ لـبـعـضـ مـنـهـمـ أـنـ يـخـلـدـوـ بـأـقـلـامـهـمـ فـيـ بـطـونـ الـأـورـاقـ،ـ أـوـ بـرـيـشـتـهـمـ عـلـىـ لـوـحـةـ الـتـصـوـيـرـ،ـ ذـكـرـهـاـ...ـ لـيـتـرـكـوـهـاـ ذـخـرـاـ لـلـأـجـيـالـ الـقـادـمـةـ.ـ لـمـ نـسـعـ بـسـمـاعـ كـلـمـاتـهـمـ فـحـسـبـ،ـ بـلـ سـعـدـنـاـ بـمـاـ اـسـتـقـرـأـنـاـ فـيـ مـلـامـحـ وـجـوـهـهـمـ مـنـ آـثـارـ الشـدائـدـ الـتـيـ عـانـوـهـاـ،ـ وـالـصـعـابـ الـتـيـ شـهـدـوـهـاـ،ـ وـرـأـيـنـاـ فـيـ الـبـرـيقـ الـذـيـ تـبـعـهـ عـيـونـهـمـ مـوـحـيـاتـ الـحـمـيـةـ،ـ وـمـطـاوـعـاتـ الـأـمـلـ،ـ وـشـهـدـنـاـ فـيـ نـظـرـاتـهـمـ وـفـيـ أـصـوـاتـهـمـ الـمـرـتـجـةـ ذـكـرـهـ،ـ وـقـعـوـاـ عـلـيـهـ مـاـ وـقـعـوـاـ مـنـ شـهـوـاتـ الـصـباـ،ـ وـمـسـرـاتـ الـشـبـابـ وـالـفـتـوـةـ.

عـلـىـ أـنـاـ لـمـ نـسـعـ بـهـذـاـ وـحـدـهـ،ـ فـإـنـهـ قـدـ حـمـلـوـ إـلـيـنـاـ شـهـادـةـ نـاطـقـةـ،ـ وـأـورـثـوـنـاـ تـرـاثـاـ حـيـاـ دـائـمـاـ،ـ غـيرـ أـنـهـ يـخـرـجـ عـنـ طـوـقـ مـسـطـطـاعـنـاـ أـنـ نـورـثـ أـلـاـدـنـاـ ذـلـكـ الـتـرـاثـ كـمـ تـسـلـمـنـاـ مـنـ يـدـ آـبـائـنـاـ؛ـ فـإـنـهـ لـنـ يـمـرـ مـنـ بـيـنـ أـيـدـيـنـاـ غـيرـ مـدـخـولـ بـتـحـوـيـرـ أوـ تـغـيـيرـ.

إن هذا التراث **لَهُوَ «اللغة»** التي علمنا إياها آباؤنا مذ كنا في المهد أطفالاً، على أنهم قد نالوا من اللغة، على غير علم منهم، بالتغيير والتبديل، غيروا اللهجة والكلمات والجمل التي تلقواها عن سبقهم؛ إذ ركزوا في تلك الكلمات والجمل طرق الكلام التي شاعت خلال سنّيهم، وأدمجوا فيها روح عصرهم، ومزجوها بفكرياته وخالياته. وتلك الجمل المنسوبة بأثر الطرق الكلامية الخاصة بهم قد ورثناها منذ الطفولة، فكانت المادة التي تكونت منها عقولنا، وكأنها صدفة محبوبة الأطراف لا بد من أن تسبك أفكارنا على نموذجها، أو هي الأداة التي نعدم بدونها طرقاً للتعبير بما يخالف أنفسنا من الفكر أو الخيال.

من لغتهم، ومن جملهم المركبة، وأمثالهم الجارية على السننهم، عرفنا كيف نفرق بين ما هو خطير مفيد، وبين ما هو تافه حقير، ومنها استمدت عقولنا مختلف الموضوعات التي تشغل أفكارنا، والأعمال التي تجيش في صدورنا، والمبادئ التي نعرف عليها، والوسائل التي نتخذها في الحياة هادياً ومرشدًا. ولا ريبة في أن مجمل هذه الأشياء قد ورثوها هم عن غيرهم، غير أن ما أمدتهم به قواهم العاقلة من ضروب الفوارق العقلية الدقيقة، ورفاهة إحساساتهم، وعرich آمالهم، جماعها أثراً تأثيراً عظيماً في جوهر اللغة؛ إذ إنهم بما أضافوا وما بدّلوا، قد استغلوا ما في عنصر اللغة من مطاوعات اللين والمرونة، وما زالوا يعالجونها حتى جعلوها أكثر تكافؤاً مع ما تتطلب حاجاتهم، ومتضيّفات حياتهم.

لقد ورثنا اللغة مدخولة بما حور فيها آباؤنا، فورثنا معها روح الجيل الماضي؛ تلك الروح التي تسوقنا كرهاً إلى مناهي من التفكير بعيتها، وترغمنا على أن نلزمها، وتضع في طريقنا من الصعاب ما يجعل جنوننا إلى غيرها متذرّاً، اللهم إلا إذا تدرجنا في تنكبها تدرجًا، وابتعدنا عنها متخطين حواجزها خفية متسللين، حتى نستطيع أن ننبه في كامن نفوسنا نزعـةـ إلى فـكـرـاتـ لمـ تـكـنـ لـتـدرـ فيـ خـلـدـنـاـ،ـ وأنـوـاقـ لمـ نـأـلـفـهاـ،ـ وإـحـسـاسـاتـ لمـ تـعـدـنـهاـ مشـاعـرـناـ.

يعكـفـ الكـثـيرـ مـنـاـ عـلـىـ الأـفـكـارـ الـمـوـرـوـثـةـ،ـ وـعـلـىـ منـاهـيـ التـفـكـيرـ المـفـطـورـينـ عـلـيـهاـ،ـ الرـسـيـسـةـ فـيـ أـخـلـاقـهـمـ مـنـذـ الطـفـولـةـ.ـ وـقـدـ يـسـتـعـينـ الـبعـضـ بـتـعـلـمـ الـلـغـاتـ الـأـجـنبـيـةـ أـوـ بـالـهـجـرـةـ اـبـتـغـاءـ الـعـيـشـ فـيـ مـمـالـكـ قـاصـيـةـ عـنـ موـطـنـهـمـ،ـ عـلـىـ بـلـوغـ درـجـةـ مـنـ الرـقـيـ يـسـهـلـ معـهاـ أـنـ يـسـتـوـعـبـواـ أـسـالـيـبـ جـديـدةـ لـلـبـحـثـ وـالـتـفـكـيرـ،ـ عـلـىـ أـنـ القـلـيلـ مـنـ هـمـ الـذـينـ يـفـزـونـ بـإـبـرـازـ شـيـءـ مـنـ الـفـكـرـاتـ الـمـبـتـكـرـةـ الـمـخـدـرـةـ،ـ فـيـكـسـرـونـ بـذـلـكـ صـدـفـةـ الـلـغـةـ الـمـحـبـوـكـةـ أـطـرـافـهاـ عـلـىـ التـعـبـيرـاتـ الـمـتـدـاوـلـةـ،ـ فـيـنـحـتوـنـ كـلـمـاتـ جـديـدةـ وـتـعـبـيرـاتـ مـسـتـحـدـثـةـ لـأـنـفـسـهـمـ،ـ يـصـوـغـونـ فـيـهاـ فـكـرـاتـ أـزـمـانـهـمـ الـمـنـدـفـعـةـ فـيـ سـمـاءـ الـعـقـولـ اـنـدـفـاعـ السـيـارـاتـ فـيـ الـفـلـكـ الـمـرـسـومـ،ـ وـيـحدـدونـ بـهـاـ رـوـحـ زـمانـهـمـ لـيـبـرـزـوـهـاـ فـيـ صـورـةـ تـكـادـ تـخـيـلـهـاـ أـمـاـكـ تـمـثـلـاـ مـنـحـوـتـاـ.

والمصطلحات اللغوية لا تثبت أن تُستعمل مرة حتى تذيع، حتى إنك لا ترجع النظر كرّة إلى الماضي جيلاً واحداً إلا لترى مقدار ارتقاء الفكريات والأذواق، ممثلاً فيما دخل على اللغة وأساليبها من التغير البين.

من هنا نجد أن كاتب هذه السطور وقارئها، الذين يرجعون بذاكرتهم إلى أواسط القرن التاسع عشر، والذين أدمهم تعليمهم وتثقيفهم بتلك الفكريات التي ذاعت منذ جيل من الزمان، هم وحدهم الذين في طوقهم أن يفخروا بأن لهم أكبر قسط من العلم بما وقع في الشطر الأعظم من هذا القرن، وبالمستحدثات التي أنتجها، والفكريات التي مهد لها سبيل الزيوع والانتشار.

وما غرضي من كتابي هذا إلا الوصول إلى هذه النتيجة؛ أريد أن أنتضل به من هوة النسيان السحرية تلك الأشياء التي يلوح لي أنها ميراثنا الخفي، وأن الذي شاعراً من النور على تلك الحياة الفكرية التي تكاد تختتم صفحاتها باختتام عصر من أزهر عصور الدنيا بالعلم، وأكثرها نصرة له. سوف أبذل جهدي في أن أتعقب خطى تلك الحياة الفكرية، وأن أستعين بكل ضروب المعلومات التي أقع عليها في مدونات غيري من الكتاب والباحثين على إبرازها في صورة أكثر تلاؤماً، وأشد تكافؤاً، بحيث تعطي الذين يتبعون رأياً ما من الآراء الخاصة بوجهة النظر التي نظر بها في ذلك العصر إلى عالم المادة والحياة، فكرة عامة تريهم كيف كان أثر القرن التاسع عشر في تبديلهم عقلياً وروحيًا.

ذلك لم يكن من قصدي أن أكتب تاريخاً ألم في مختلف التغيرات السياسية الظاهرة، أو تقدم الإنتاجية الصناعية. أما التغيرات السياسية الظاهرة فقد تصبح أطوع قياداً لأولادنا هنا. وأما الإنتاجية الصناعية فتلك أشياء سرعان ما تنسى، وقد تندمج وتنمحى فيما سوف ينتج المستقبل من مخترعات ووسائل، فلا يكون ما نرى منها في زماننا إلا ممهدات لما سوف يعقبها.

ذلك لست أريد أن أكتب تاريخاً للمعرفة والعلم، ولا قصة الأدب والفن؛ فإن هذه الأشياء إن كانت بذاتها نتاج الحياة الكامنة، بل إن كانت تلك الحياة تتضمنها، فإنّا لن نلجلج إلى بحثها إلا كوسائل لتمحیص النتائج التي قد نصل إليها. أما ما سوف يستغرق أكبر قسط من عنائي، فتلك الآمال والغايات الحياة الشاعرة التي تحدث أية حركة ارتقائية، سواء أفي السياسة أم في الاجتماع، إن وقعت عليها. أما إذا لم أقع عليها فأنصرف إلى الكلام في النتائج التي أبرزتها حياتنا الداخلية الكامنة، والأساليب التي انتشرت بها المعرفة، أو طبّق بها العلم، والمبادئ التي تتحقق في وراء صور الأدب والنقد، أو ذلك الكنز الروحي الدفين الذي يعمد الشعر والفن والحرّكات الدينية إلى كشف خفياته والإبانة عن أسراره.

وفي الواقع أريد أن أبحث ذلك الدور الذي لعبته حياتنا الداخلية الخفية؛ حياة الفكر، في تاريخ القرن التاسع عشر، مشفوعاً ذلك بأوجهه التقدم والارتقاء وضروب الكسب، التي كانت نتاجاً لوقوع الحوادث والتغيرات الظاهرة في عالم الحياة العامة.

أما وقد سلمنا بأن العلم الذاتي والتجربة كليهما ذو خطر كبير في القيام ببعء ما خططت لنفسي، وما دام علمنا قد دلنا على أن عدم الاندماج في الحياة الكامنة لعصر من العصور لن ينتج إلا تاريخياً يقتصر على ذكر الأسماء، أو يتناول بعض الآراء بالفقد، فإننا لا محالة نسلم مع هذا بأن هذه الأمور عامة بواعث تحدد في وجهنا مجال الانبعاث إلى ما وراءها؛ ولذا أشعر بأني مقسورة على أن أقصر بحثي على الفكر الأوروبي وحده.

لم تكن فكرة الاقتصار في التاريخ على ناحية بعينها من نواحي الفكر موجودة منذ قرن من الزمان؛ لأن ذلك كان محتوماً علينا. أما وقد أخذت صورة من صور المدنية الحديثة تتكون حول الشاطئ الآخر من المحيط الأطلantيقي، يزجيها شعب فتىٰ موفور القوة والنشاط بكل مهارات النماء والتطور، فلا يسعني مع هذا إلا أن أُسلّم بأمررين: الأول: أن هناك عالماً جديداً يزداد كل يوم خطره، ويتضاعف شأنه، في حين أنني لست على علم بشيء من خصائصه وحياته، وإن أشعر إذا ما أردت أن أؤرّخ في حياته الداخلية الكامنة إلا بالعجز والقصور، والثاني: أن عجزي عن التاريخ فيه لا يضارعه إلا عجزي عن أن أصور لنفسي ما يكون من شبح التثقيف الأوروبي في عين باحث بعيد عنه، مبتوتة الصلة به، غير ناظر إليه إلا بعين الدنيا الجديدة.

إن الدنيا الجديدة لتنمو وتتكثّر، لا من جهة العدد والثروة الأهلية فحسب، بل من جهة الاستعمال الفكري، كلما زادت إمعاناً في النشوء العقلي والتطور الروحي؛ لذلك لا نشك في أنها سوف تعاني مشقة الرغبة في التاريخ في حياتها الكامنة وعنابر تثقيفها؛ لتعثر في درج ذلك البحث على الخصائص التي تُفَرِّق بين مدينتها ومدينتنا، غير أن الميل التي يتجه فيها ذلك التثقيف الحديث غامضة على، بل تكتنفها ظلمة موحشة، وليس لدى ما يحول دون اعترافي بالعجز عن أن أقضي فيها بحكم ثابت محدود.

أراني مقتنعاً تمام الاقتناع بأن الحياة الظاهرة المرئية في حياة البشر رأي العين والحس ليست سوى وعاء يتضمن مادة خفية لا تصل إليها الحواس، أو هي صدفة يتكون في صميمها جنين المستقبل؛ لذلك لا آنس من نفسي قدرة على الإفصاح عن ماهيتها؛ ولهذا لا أريد أن أتناول من حركة التثقيف العام التي ولّتها القرن التاسع عشر إلا ما احتك منها بالفكر الأوروبي احتكاكاً مباشراً، وكان فيه من الحياة الأوروبية أثر بَيْنَ.

على أنني سوف أقصر بحثي في الفكر الأوروبي على مرتکزه ومحوره، ساقصره على الآداب الفرنسية والألمانية وإنكليزية. ولست أنكر أن الآداب الإيطالية والسيكانياوية والروسية محيطة بذلك المركب، بل كثر ما أثرت فيه تأثيراً ما، غير أنني فيها أقع على لغات لم آلفها، ونزاعات لم أتبين ماهيتها وحقيقة، فكنت أشعر بأنه يستحيل علي أن تميز شيئاً من صبغة الحياة الجديدة الكامنة فيها، وكانت مسؤوليتي تزيد في نظرية كلما زدت اقتناعاً بأنني إن تناولت تلك الآداب ببحث اضطررت إلى أن ألزم نفسي عن السعي وراء الكشف عن أسباب وبواطن لم تتهيأ لي سبل الإبانة عن خفياتها، لأنني منها بدرس يرضي الحق والضمير.

يقتصر بحثنا على الفكر الأوروبي – أي على الفكر في فرنسا وألمانيا وإنكلترا – خلال الشطر الأعظم من القرن التاسع عشر. ومهما أحاط بهذا البحث من حدود الزمان والمكان، فإنه لا يزال شاقاً متشعب الأطراف أشعر منه باستیحاش وخوف. ومع هذا فقد جعلت رائدي في كل مباحثي التي سوف أسوق بنفسي في غمراتها، وفي كل الصور والملخصات التي سوف أبرزها، أن لا أهمل في بحث كل منها فكرة الوحدة التي تجمع بينها.

وما تلك الوحدة في نظري سوى ذلك الشيء الذي ألمتنا إياه روح التقدم الذي وقع في عصراً، وهي في ماهيتها نتيجة ما بذل من الجهد خلال القرن التاسع عشر؛ فلقد كان يتعدّر عليك منذ قرن واحد، لا بل منذ خمسين عاماً فقط، أن تتكلّم في «الفنون الأوروبي» على الوجه الذي أتكلّم به الآن، فإن القرنين السابع عشر والثامن عشر، هما القرنان اللذان صُبغ فيهما العلم بصبغة الوطنية؛ لأن فيهما حلّ اللغات الوطنية الخاصة بكل أمة من الأمم محل اللغة اللاتينية العامة في تواليف الآداب والعلم، وفيهما بدأت تتميز الآداب بمميزات الشعوب وتتصبغ بصبغتها، وفيهما بدأ الفكر يستقلّ باستقلال الأمم القاطنة في غربى أوروبا استقلالاً معنوياً.

لهذا تجد أن الناس في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر قد بدءوا بأسفار طويلة قضوها في التأمل والدرس، متنقلين من مملكة إلى أخرى؛ ليحصلوا أوطانهم بما ينقلون من فكرات مبتكرة، أو أساليب للبحث غير مألوفة، على أن هذه الأسفار قد عقبها ذيوع الأفكار الحديثة، فوفد إلى إنكلترا «فولتير» Voltaire عام ١٧٢٦؛ حيث نشأت فلسفتا «نيوتن» Newton و«لوك» Locke، ولم يكن قد وصل إلى فرنسا علم بهما، وساح آدم سميث Adam Smith في فرنسا عام ١٧٦٥؛ حيث درس طريقة

«كونينسي» Quensay الاقتصادية، وأكب على مباحث «الفيزيوقراطيين» Physiocrats يدرسها الدرس الوافر، ومنها كون فكرته التي بني عليها فلسفة الاقتصاد الكلاسيكي التي أخرج فيها كتابه «ثروة الأمم» The Wealth Of Nations.

خلال الرابع الأخير من القرن الثامن عشر، أسس «أ. ج. فرنر» A. G. Werner أكاديمية التعدين، التي كانت قد وجدت في صورة معهد قروي عام ١٧٦٦، فأصبحت مركزاً من أعظم مراكز العلم والتنوير العقلي في أوروبا، وإليها اليوم يسعى طلاب العلم من أقطار الأرض قاطبة ليتقنوا تعاليم أساتذتها العظام، وفي أواخر القرن التاسع عشر هبط «وارد سوورث» Word Sworth و«كوليرidge» Coleridge ألمانيا، ولم يعد «كوليرidge» إلى إنكلترا إلا مزوداً بفلسفة «كان» Kant وفلسفة «شيلنج» Schelling.

ولا ننسى مدام «دي ستايل» M. de Staël؛ فإنها لم تكن تسمع أن في ألمانيا حركة أدبية حديثة، تناقل أخبارها بعض مهاجري الثورة الفرنسية، حتى عمدت إلى دراسة اللغة الألمانية بأقصى ما وصل إليه الجد والنشاط، مقتنة بأن صورة حديثة من صور الفكر قد أنبتها العقل الألماني، ثم زارت ألمانيا من بعد ذلك مستصحبة «بنيامين كونستان» Benjamin Constant في أواخر عام ١٨٠٣، وكرة ثانية عام ١٨٠٧، ومن ثم كان كتابها الذي أسمته «عن ألمانيا» De L'allimage نتیجہ سیاحتیها. وبينما كان «كوليرidge» ومدام «دي ستايل» يستنزلان وهي تلك الحياة الجديدة التي بعثتها عبقرية «جوته» Goethe، و«شيللر» Schiller في «فيمر» Weimer، كان طلاب العلم في أنحاء القارة الأوروبية يولون وجوههم شطر باريس؛ حيث ظلت تلك المدينة بضعة عشرات من السنين محور البحث العلمي، ومبعد الأسلوب الحديث، وحيث تركت الفكريات العلمية المبتكرة في نقطة، وأخذت تشع بنور المعرفة.

لقد ظلت باريس أكثر من نصف قرن مهبطاً لوحى الفكرة العلمية، حتى إن فلاسفـةـ الإـنـجـلـيزـ -ـ الـذـيـنـ ظـلـواـ مـنـذـ زـمـانـ «ـبـاكـونـ» Bacon، وـ«ـنـيوـتنـ» Newtonـ مـتـبعـينـ تقـلـيدـ الاستـقلـالـ بـأسـالـيـبـهـمـ الخـاصـةـ فـيـ الـبـحـثـ -ـ قـدـ اـقـتـنـعـواـ فـيـ أـوـاـخـرـ العـقـدـ الثـانـيـ مـنـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ، بـأـنـ «ـنـيوـتنـ» العـظـيمـ لـاـ يـقـومـ بـذـاتهـ كـفـيـلـاـ بـأـنـ طـرـيقـتـهـ الـعـلـمـيـ بـالـغـةـ أـقـصـىـ حدـ منـ المـتـانـةـ وـالـثـبـاتـ، مـسـتـنـدـيـنـ فـيـ ذـلـكـ عـلـىـ مـاـ رـأـواـ مـنـ أـوـجـهـ التـبـدـيلـ وـالـارـتـقاءـ الـتـيـ أـحـدـثـاهـ فـيـهاـ رـيـاضـيـوـ الـقـارـةـ الـأـورـوـبـيـةـ.

ولقد وفـدتـ تـلـكـ الأـسـالـيـبـ الـمـبـتـكـرـةـ إـلـىـ إنـكـلـتـرـاـ بـفـضـلـ ثـلـاثـةـ مـنـ خـرـيجـيـ جـامـعـةـ «ـكـامـبرـدـجـ»ـ؛ـ هـمـ:ـ «ـهـرـشـلـ»ـ Herschelـ،ـ وـ«ـبـابـيـجـ»ـ Babbageـ،ـ وـ«ـبـيكـوكـ»ـ Peacockـ،ـ تـرـجمـواـ

مقالة «لاкро» Lacroix ففتحوا بذلك ميدانًا للبحث الرياضي كان مغلقًا، وبدعوا للتفكير الرياضي عهـدـاـ جـديـدـاـ. وبعد أن مضـىـ علىـ ذـلـكـ العـهـدـ خـسـنةـ سـنـةـ، توافـدـ طـلـابـ الـعـلـمـ منـ نـوـاحـيـ الدـنـيـاـ الـأـرـبـعـ علىـ بـلـدـةـ «ـجـيـسـنـ» Geissen الألمانية؛ ليتلقـواـ فيـ كـلـيـاتـهاـ عـلـمـ الـكـيـمـيـاءـ الـحـدـيـثـ، وأـسـالـيـبـ الـبـحـثـ الـتـيـ كـانـتـ تـلـقـىـ فيـ مـعـلـمـ «ـلـيـبـيـجـ» Leibig، وكـانـتـ تلكـ الـأـسـالـيـبـ منـ قـبـلـ طـرـقـاـ خـاصـةـ مـقـصـورـاـ نـفـعـهـاـ عـلـىـ الـعـاـمـلـ الـتـابـعـةـ لـبـضـعـةـ أـفـرـادـ منـ الـعـلـمـاءـ.

ولقد يتذكر البعض مما أحدث ذيوع فلسفة «أوغست كونت» Auguste conte بين عامي ١٨٣٠ و ١٨٤٠، تلك الفلسفة التي ظلت بلا أثر بـينـ فيـ بلـادـ فـرـنـسـاـ، ولم تكسب مرـكـزاـ ذـاـ شـأـنـ فيـ الـفـكـرـ الـإـنـسـانـيـ إـلـاـ بـماـ كـتـبـ فـيـهاـ «ـجـونـ سـتـيوـارتـ مـيـلـ» J. S. Mill، ومدرسته وتابعـيهـ، وبـماـ تـرـكـ فـيـهاـ مـنـ صـورـ الـفـكـرـ الـخـاصـةـ بـإنـكـلـتـراـ، وـمـنـ ثـمـ عـادـتـ إلىـ فـرـنـسـاـ ثـانـيـةـ بـعـدـ مـضـىـ جـيلـ تـامـ عـلـىـ وـفـودـهـ إـلـىـ إـنـكـلـتـراـ.

حدث مثلـ هـذـاـ لـصـورـ إـنـكـلـيـزـيـ صـرـفـ هـمـ إـلـىـ تـصـوـيرـ الـمـانـاظـرـ الـطـبـعـيـةـ، فـقـدـ ظـلـ «ـكـوـنـسـتـاـبـلـ» Constable، مـهـمـلـاـ حـتـىـ عـرـضـتـ صـورـهـ فيـ فـرـنـسـاـ عـامـ ١٨٢٤ـ، فـأـحـدـثـتـ أـثـرـاـ عـظـيمـاـ فيـ مـصـورـيـاهـ إـلـىـ حدـ أـنـهـ يـعـتـبـرـونـ عـرـضـهـاـ عـهـدـاـ جـديـدـاـ تـنـاـولـ تـصـوـيرـ الـمـانـاظـرـ الـطـبـعـيـةـ فيـ فـرـنـسـاـ بـأـعـظـمـ تـطـوـرـ وـقـعـ فيـ تـارـيـخـ هـذـاـ الفـنـ.

إنـ أمـثلـ هـذـهـ السـيـاحـاتـ الـاسـتـكـشـافـيـةـ فيـ عـالـمـ الـفـكـرـ وـالـنـاشـاطـ الـعـقـليـ، أـصـبـحـتـ مـسـتـحـيـلـةـ فيـ الـعـصـرـ الـحـاضـرـ؛ لأنـ الـعـلـمـ خـلـالـ الـقـرنـ التـاسـعـ عـشـرـ قدـ لـبـسـ ثـوبـ الشـعـوبـيـةـ، وـمـعـاهـدـ الـعـلـمـ الـمـسـتـقـلـةـ الـمـبـتوـتـةـ الـصـلـاتـ بـغـيرـهـاـ، أـخـذـتـ تـقـلـ وـتـزـدـادـ نـدـرـتـهـاـ حـيـنـاـ بـعـدـ حـينـ، فـإـنـ التـرـاسـلـ، وـذـيـوعـ الـمـجلـاتـ الـدـوـرـيـةـ، وـالتـنـامـ الـجـمـاعـاتـ الـعـلـمـيـةـ وـنـشـرـ مـقـرـراتـهـاـ قـدـ كـفـلـ لـلـعـلـمـ أـنـ يـظـلـ مـحـيـطـاـ بـكـلـ ماـ تـخـرـجـ الـعـقـولـ مـنـ الـمـسـتـكـشـفـاتـ الـحـدـيـثـةـ مـهـمـاـ ضـوـئـ شـأنـهـاـ، عـلـىـ أـنـ صـبـغـ الـعـلـمـ الـو~طنـيـةـ لـاـ تـزالـ باـقـيـةـ، غـيرـ أـنـهـ لـاـ يـمـكـنـ العـثـورـ عـلـيـهـاـ إـلـاـ فـيـ دـفـائـنـ الـفـكـرـ الـبـعـيـدةـ الـقـصـيـةـ؛ كـخـطـرـاتـ الـنـفـوسـ الـخـفـيـةـ، وـالـمـصـطـلـحـاتـ الـكـلـامـيـةـ الـتـيـ لـاـ تـجـدـ بـعـضـ الـلـغـاتـ مـُـتـسـعـاـ لـنـقـلـهـاـ إـلـىـ أـبـنـائـهـاـ.

وـلـلـعـلـمـ، كـمـاـ لـدـورـةـ الـلـيـلـ وـالـنـهـارـ، غـسـقـ وـفـجرـ، وـلـهـ صـبـحـ تـخـتـلطـ بـهـ خـيوـطـ الـفـجرـ، وـلـهـ ضـوءـ أـبـلـجـ لـمـ يـشـبـهـ مـنـ ظـلـمـةـ الـلـيـلـ دـنـسـ، غـيرـ أـنـ ضـوءـهـ الـأـبـلـجـ قـدـ نـمـاـ وـانـتـشـرـ وـزـادـ إـشـعـاءـاـ خـلـالـ الـقـرنـ التـاسـعـ عـشـرـ، حـتـىـ إـنـتـاـ لـنـسـتـطـيـعـ أـنـ تـنـكـلـمـ فـيـ نـزـعـةـ الـفـكـرـ الـأـورـوـبـيـ فيـ مـجـمـوعـهـ الـيـوـمـ إـذـاـ قـصـرـنـاـ الـكـلـامـ عـلـىـ الـفـكـرـ فـيـ فـرـنـسـاـ وـأـلـمـانـيـاـ وـإـنـكـلـتـراـ، فـيـ حـينـ أـنـتـاـ نـكـنـ لـنـبـلـغـ إـلـىـ ذـلـكـ فـيـ الزـمـانـ الـفـارـطـ.

وإنـيـ معـ اـحـتـفـاظـيـ بـغـرـضـيـ الـأـولـ،ـ سـوـفـ أـسـوـقـ مـبـاحـثـيـ فيـ أـكـثـرـ جـهـاتــ الفـكـرـ الـأـورـوـبـيـ اـتـسـاعـاـ وـأـخـصـبـهاـ إـنـتـاجـاـ ...ـ كـيـفـ كـانـتـ نـشـائـهـ؟ـ وـكـيـفـ بـلـغـتـ إـلـىـ ماـ نـراـهـاـ عـلـيـهـ؟ـ وـمـاـذـاـ كـانـ أـثـرـ كـلـ أـمـةـ مـنـ الـأـمـمـ فـيـ تـكـوـينـ مـجـمـوعـةــ الفـكـرـ العـامـةـ؟ـ وـمـاـ هـوـ حـظـنـاـ مـنـ الجـهـدـ فـيـ إـيـتـائـهـ بـالـجـدـيدـ وـتـزـوـيـدـهـ بـالـحـدـيـثـ؟ـ وـمـاـ هـيـ التـغـيـرـاتـ التيـ اـنـتـابـتـهـاـ خـلـالـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ؟ـ وـلـكـنـ قـدـ نـضـيـفـ إـلـىـ هـذـاـ سـؤـالـ يـتـرـتبـ عـلـيـهـ مـاـ سـوـفـ نـتـبـعـ إـزـاءـ هـذـهـ المـهـمـةـ مـنـ طـرـقـ الـبـحـثـ،ـ قـدـ نـسـأـلـ:ـ كـيـفـ نـصـلـ إـلـىـ جـمـعـ بـيـنـ مـاـ تـفـرـقـ مـنـ مـجـمـوعـةــ الفـكـرـ؟ـ كـيـفـ نـسـتـطـيـعـ أـنـ نـفـرـقـ بـيـنـ مـاـ هـوـ نـتـاجـ جـهـدـ جـهـدـ غـيـرـنـاـ؟ـ إـنـ لـدـنـاـ طـرـيقـةـ وـاحـدـةـ،ـ غـيـرـ أـنـهـ لـيـسـ الـطـرـيقـةـ الـتـيـ سـوـفـ نـتـبـعـهـاـ عـلـىـ وـجـهـ الإـلـاطـقـ،ـ وـإـنـ كـانـ طـرـيقـةـ جـديـرـ بـإـنـعـامـ النـظـرـ وـالـاعـتـبارـ.

لـقـدـ أـبـيـتـ مـنـ قـبـلـ كـيـفـ أـنـ التـغـيـرـاتـ التيـ تـنـتـابـ عـالـمـ الفـكـرـ تـتـرـكـ فـيـ عـنـصـرـ اللـغـةـ الـمـرـنـ،ـ وـفـيـ الـأـسـالـيـبـ التيـ يـبـتـكـرـهـاـ الـعـصـرـ.ـ إـنـ درـاسـةـ تـلـكـ التـغـيـرـاتـ التيـ اـنـتـابـتـ الـكـلـمـاتـ الـلـغـوـيـةـ خـلـالـ الـعـصـرـ،ـ وـالـأـسـالـيـبـ التيـ تـعـاقـبـتـ عـلـىـ ثـلـاثـ الـلـغـاتـ الرـئـيـسـةـ فـيـ أـورـوـبـاـ الـفـرـنـسـوـيـةـ وـالـأـلـانـيـةـ وـالـإـنـكـلـزـيـةـ –ـ لـتـدـلـنـاـ وـاضـحـ الدـلـالـةـ كـيـفـ وـمـتـىـ نـشـائـ وـشـبـتـ الـفـكـرـاتـ الـحـدـيـثـةـ،ـ وـكـيـفـ ثـبـتـ وـتـحدـدـتـ مـعـانـيـهـاـ بـكـلـمـاتـ أوـ مـصـطـلـحـاتـ لـغـوـيـةـ.ـ وـلـاـ يـسـاعـدـنـاـ هـذـاـ الـبـحـثـ عـلـىـ اـكـتـنـاهـ الـكـيـفـيـةـ الـتـيـ نـمـتـ وـتـرـعـرـعـتـ بـهـاـ الـفـكـرـ الـأـورـوـبـيـ فـحـسـبـ،ـ بلـ يـعـرـفـنـاـ كـيـفـ هـاجـرـتـ الـفـكـرـاتـ الـفـرـدـيـةـ وـالـمـذاـهـبـ منـ أـمـةـ إـلـىـ أـمـةـ،ـ وـكـيـفـ اـنـتـقلـتـ مـنـ شـعـبـ إـلـىـ شـعـبـ،ـ وـفـضـلـاـ عـنـ هـذـاـ فـإـنـ هـذـهـ الـطـرـيقـةـ لـتـعـرـفـنـاـ بـأـيـةـ الـوـسـائـلـ وـجـدـتـ الـفـكـرـاتـ الـفـرـدـيـةـ –ـ الـتـيـ نـشـائـتـ فـيـ عـقـولـ تـلـكـ الـأـمـمـ الـثـلـاثـ –ـ مـكـانـاـ حـرـيـزاـ تـنـموـ فـيـهـ وـتـلـقـيـ بـذـرـهـاـ.

إـنـ كـلـ مـنـ تـعـمـدـ الـتـرـجـمـةـ وـالـنـقـلـ مـنـ إـحـدـيـ هـذـهـ الـلـغـاتـ إـلـىـ غـيرـهـاـ،ـ سـوـاءـ أـكـانـ نـثـرـ،ـ أـمـ غـنـاءـ مـنـظـومـاـ،ـ أـمـ فـلـسـفـةـ،ـ أـمـ شـعـرـاـ وـصـفـيـاـ،ـ لـاـ بـدـ مـنـ أـنـ يـكـونـ قـدـ عـانـيـ ضـرـورـةـ الـإـكـبـابـ عـلـىـ درـاسـةـ طـبـيـعـةـ الـفـكـرـ،ـ أـمـ الـعـنـىـ الـذـيـ تـؤـدـيـهـ الـكـلـمـاتـ أوـ الـجـمـلـ درـاسـةـ تـامـةـ،ـ لـاـ بـدـ مـنـ أـنـ يـكـونـ قـدـ سـبـقـ إـلـىـ مـعـرـفـةـ مـاـ هـوـ شـائـعـ بـيـنـ الـلـغـاتـ جـمـيـعـاـ،ـ وـبـيـنـ مـاـ هـوـ خـاصـ بـكـلـ مـنـهـاـ،ـ وـالـفـكـرـاتـ الـتـيـ تـعـبـرـ عـنـهـاـ الـمـصـطـلـحـاتـ.

يـُـنـسـبـ إـلـىـ «ـجـوـتـهـ»ـ عـادـةـ أـنـهـ خـالـقـ تـلـكـ الـلـغـةـ،ـ وـذـكـ الـأـسـلـوبـ،ـ الـذـيـ بـرـزـ فـيـهـماـ أـجـمـلـ مـاـ فـيـ الـأـدـبـ الـأـلـانـيـ الـحـدـيـثـ.ـ وـلـنـ نـعـثـرـ عـلـىـ كـاتـبـ آخـرـ،ـ سـوـاءـ أـفـيـ الـأـلـانـيـاـ أـمـ فـرـنـسـاـ أـمـ إنـكـلـتـرـاـ،ـ أـحـدـثـ مـاـ أـحـدـثـ «ـجـوـتـهـ»ـ مـنـ التـأـثـيرـ الـبـيـنـ فـيـ آدـابـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ،ـ غـيـرـ أـنـنـاـ مـعـ هـذـاـ لـاـ نـغـفـلـ عـنـ أـنـ عـظـمـاءـ كـاتـبـ فـرـنـسـاـ الـرـوـاـيـيـنـ،ـ وـفـلـاسـفـةـ الـأـلـانـيـاـ الـمـيـتـافـيـزـيـيـنـ –ـ أـصـحـابـ مـاـ وـرـاءـ الـطـبـيـعـةـ الـغـيـبيـيـنـ –ـ وـالـعـقـولـ الـشـعـرـيـةـ الـخـيـالـيـةـ الـتـيـ أـنـبـتـهـاـ إنـكـلـتـرـاـ الـحـدـيـثـةـ،ـ

جماعـهـمـ قدـ أـضـافـواـ إـلـىـ مـجـمـوعـةـ الـكـلـمـاتـ،ـ وـزـادـواـ إـلـىـ لـغـاتـهـمـ عـدـدـاـ عـظـيـمـاـ منـ التـعـبـيرـاتـ  
الـلـغـوـيـةـ ذـوـاتـ الـفـائـدـةـ الجـلـلـيـةـ.

ولقد كان «لكارلـيلـ» Carlyle أعـظمـ الأـثـرـ فيـ نـحـتـ كـثـيرـ منـ النـعـوتـ والـكـنـىـ التيـ  
استـمـدـهاـ منـ الـلـغـةـ الـأـلـمـانـيـةـ،ـ وـأـدـخـلـهاـ فيـ تـضـاعـيفـ الـلـغـةـ الإـنـكـلـيـزـيـةـ،ـ كـذـلـكـ قدـ صـرـفـ  
«ـمـاتـيوـ أـرـنـولـدـ» Mathew Arnold جـهـدـهـ فيـ مـثـلـ هـذـهـ السـبـيلـ؛ـ حـيـثـ استـمـدـ منـ مؤـلـفـيـ<sup>٣</sup>  
الـفـرـنـسـوـيـنـ،ـ مـثـلـ «ـسـانـتـ بـوفـ» Sainte-Beuve وـغـيرـهـ منـ أـعـصـاءـ «ـالتـحلـيلـ التـفـسيـ»ـ<sup>٢</sup>  
فيـ الـأـدـبـ Introspective School،ـ كـمـ استـمـدـ منـ «ـجـوـتهـ»ـ وـ«ـهـينـ»ـ Heineـ.ـ ولـقـدـ كـانـتـ  
الـأـلـمـانـيـاـ أـقـلـ حـظـاـ فيـ نـشـرـ كـلـمـاتـهـ الـلـغـوـيـةـ الـخـاصـةـ بـهـاـ؛ـ فـإـنـ استـعـدـادـ الـلـغـةـ الـأـلـمـانـيـةـ لـإـدـمـاجـ  
الـكـلـمـاتـ الـأـجـنبـيـةـ عـنـهـاـ،ـ وـاستـعـمـالـهـاـ مـنـ غـيرـ تـحـوـيرـ فـيـهـاـ أوـ تـبـدـيلـ،ـ قـدـ أـثـرـ تـأـثـيرـاـ عـظـيـمـاـ فيـ  
صـبـغـ الـأـسـلـوبـ الـأـلـمـانـيـ بـصـبـغـةـ التـعـقـيدـ،ـ حـتـىـ فـقـدـ الـلـغـةـ الـأـلـمـانـيـةـ مـرـونـةـ أـسـلـوبـهاـ وـجـمـالـهـاـ  
وـعـنـصـرـهـاـ الشـعـريـ.

وـإـنـيـ لـأـرجـحـ أـنـ الـبـاحـثـيـنـ سـوـفـ يـعـرـفـونـ عـماـ قـرـيبـ أـنـ ماـ طـرـأـ عـلـىـ مـفـرـدـاتـ الـلـغـاتـ  
الـحـدـيـثـةـ مـنـ سـعـةـ الـمـعـنـىـ،ـ لـاـ مـنـ جـمـالـ الـلـفـظـ،ـ رـاجـعـ إـلـىـ تـأـثـيرـ الـعـلـومـ Sciencesـ عـلـىـ الـأـدـبـ،ـ  
وـحـرـكـةـ التـثـقـيفـ الـعـامـ؛ـ فـإـنـ كـثـيرـاـ مـنـ الـكـلـمـاتـ الـمـتـاـولـةـ الـمـعـرـوـفـةـ قـدـ حـازـتـ مـنـ تـلـكـ الـطـرـيقـ  
مـعـانـيـ جـدـيـدةـ أـكـثـرـ سـعـةـ،ـ وـأـبـعـدـ ضـبـطـاـ.

إـنـ كـلـمـةـ «ـنـمـاءـ»ـ Developmentـ الـغـامـضـ الـمـبـهـمـةـ قدـ رـجـحتـهـاـ فـيـ الـاستـعـمـالـ كـلـمـةـ  
«ـنـشـوـءـ»ـ Evolutionـ،ـ كـذـلـكـ قدـ أـصـبـحـ لـكـلـمـةـ «ـتـفـرـيقـ أـوـ تـعـضـونـ»ـ Differentiationـ معـنـىـ  
فـلـاسـفـيـاـ حـدـيـثـاـ،ـ عـدـاـ مـعـناـهـاـ الـرـياـضـيـ،ـ كـذـلـكـ إـذـاـ نـظـرـتـ إـلـىـ كـلـمـةـ «ـإـيجـابـيـ»ـ Positiveـ أـوـ  
«ـيـقـيـنـيـ»ـ؛ـ فـإـنـكـ تـجـدـ أـنـهـاـ قدـ حـازـتـ مـعـنـيـنـ جـدـيـدـينـ مـحـدـدـيـنـ تـمـامـ التـحـدـيدـ،ـ لـمـ تـكـنـ لـتـلـدـ  
عـلـيـهـمـاـ مـنـ قـبـلـ،ـ عـدـاـ مـعـناـهـمـاـ الـمـنـطـقـيـ،ـ وـكـلـمـةـ «ـنـشـاطـ»ـ Energyـ قدـ تـضـمـنـتـ مـعـنـىـ جـدـيـداـ  
غـيرـ مـعـناـهـاـ الـعـامـ،ـ وـغـيرـ مـعـناـهـاـ الـفـلـسـفـيـ الـذـيـ خـصـهـاـ بـهـ «ـأـرـسـطـوـطـالـيـسـ»ـ Aristotleـ؛ـ  
حـيـثـ أـخـذـتـ فـيـ إـنـكـلـتـرـاـ،ـ وـمـنـ ثـمـ فـيـ بـقـيـةـ الـمـالـكـ الـأـوـرـوبـيـةـ مـكـانـ كـلـمـةـ Forceـ أـيـ قـوـةـ،ـ  
كـاـصـطـلـاحـ أـكـثـرـ ضـبـطـاـ لـلـمـرـادـ،ـ وـأـدـلـ عـلـىـ الـمـقـصـودـ.

وـإـلـيـكـ كـلـمـتاـ «ـاـرـتـبـاطـ أـوـ تـبـادـلـ»ـ Correlationـ –ـ وـحـفـظـ أـوـ بـقـاءـ»ـ Conservationـ،ـ  
فـإـنـهـمـاـ عـلـىـ عـلـاقـتـهـمـ بـكـلـمـةـ Energyـ –ـ نـشـاطـ –ـ اـصـطـلـاحـانـ لـهـمـاـ قـيـمةـ عـلـمـيـةـ خـاصـةـ،ـ

<sup>٣</sup> سـانـتـ بـوفـ (٤ ١٨٩٦ـ ١٨٠٤) لمـ يـكـنـ بـفـهـمـ الـأـدـبـ مـنـ الـبـيـئةـ،ـ أـوـ مـنـ الـعـوـاـمـ الـأـخـرـىـ،ـ بـلـ أـرـادـ أـنـ  
تـكـونـ صـلـةـ الـأـدـبـ بـيـنـ الـكـتـابـ أـنـفـسـهـمـ وـبـيـنـ أـمـزـجـتـهـمـ وـخـواـصـهـمـ الـنـفـسـيـةـ وـالـعـقـلـيـةـ.

ثم كلمة «الأصلح» Fittest، واستعمال «التاجر على البقاء» Struggle for existence، فإنها ليدلان على شيئاً يختلفان كل الاختلاف عما كانا يدلان عليه منذ خمسين سنة خلت، ثم لديك اصطلاح «تام» Exact، «علم» ScienceScience، فإنها كذلك يدلان على شيء لم يكونوا يدلان عليه من قبل.

ولقد خرجت اللغات من المذاهب الحديثة التي نادت في حدود المعرفة الإنسانية والإدراك العقلي باصطلاحات فلسفية حديثة، منها «اللاشاعر» Unconscious، و«المجهول» Unknown، و«اللاأدري» Agnostic. وهي تدل على مناحي كاملة من الفكر الحديث.

ولا مشاحة في أنه من أبعث الأشياء على تحصيل الفائدة أن يتبع الباحث أصول تلك الكلمات والجمل، وأن يرجعها إلى مناوشتها الأولى، أو أن يستعمق في بحث تلك المعاني التي كسبتها الكلمات الشائعة المعروفة. إنك إن تتبعت هذا البحث في ثلث اللغات الرئيسية في أوروبا، كان هذا يعنيه أقرب الأشياء إلى البحث المنظوم لمعرفة حقيقة تلك التغيرات التي انتابت الفكر الحديث.

وليس لدينا من ضرورة تلزمنا أن نتذرع في الوصول إلى غرضنا بالعكوف على نظرية ما نتخذها قاعدة لما نرى من العلاقة بين المدينة والفكر واللغة؛ فإن القرن التاسع عشر لم يعد شيئاً من هذا منذ عصر «دي بونالد» De Bonald، الذي لم يكن ليり في اللغة إلا تنزيلاً قدسيّاً، إلى أحدث العصور وأكثرها تشبعاً بروح العلم، أي «ماكس مولر» Max Muller الذي مزج الفلسفة بعلم اللغة، متبعاً نفس الطريقة التي أصبح بها علم الفلك في نظر الكثرين مسألة تحليل فحسب Une question d'analyse، على أننا نستطيع أن نُوْفَق من ناحيَة ما بين «دي بونالد» و«ماكس مولر»، فإننا كأفراد ولِدُنَا وربُّينَا في عصر تمدينٍ وتشفيفٍ عقلي، نبدأ عادة بالتقاط الألفاظ والكلمات قبل أن نستوعب الفكريات الواضحة ذات الضوابط المحددة؛ لهذا يخيل إلينا أن فكرة «دي بونالد» راجحة، ما لم نستعمل في البحث في أصل اللغة والفك ونشؤنها.

ثم انظر إلى ذلك السنن الهين الذي ندخل به من طريق استعمالنا للغة آبائنا إلى ذلك التيه الموحش المتلامي الأطراف، تيه التفكير العقلي الصرف، فإن هذا الأمر ليكاد يكون

۱۷۵۴-۱۸۴۰ءی یونالد

<sup>٥</sup> كتاب مولر «علم الفكر» عام ١٨٨٧.

معجزة فيها من أثر الوحي ما فيها، غير أنه ليس من قصدي — كما قلت من قبل — أن أمضي في دراسة الفكر الأوروبي ونشوئه خلال القرن التاسع عشر من طريق التحليل الدقيق لأوجه التغاير والرقى التي طرأت على اللغات الرئيسية؛ لأن ذلك لا يتيسر إلا لأولئك الذين نالوا قسطاً وافراً من العلم بمفردات اللغة لم يُتح إلا لمن كتبوا القواميس والمعجمات الكبرى، مثل: «جريم» Grimm، و«لتيريه» Littré، و«موراي» Murray. وإن كنت أشعر من نفسي بالعجز عن بلوغ هذا القصد، فلدي مسألة واحدة تضطركني إلى الدخول في بحث غراماطيقي Grammatical يتناول كلمة «الفكر» Thought، وكيف تعبر عن المعنى الذي أدركه منها في اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وكيف تترجم تلك الكلمة؛ فإن الموضوع الذي نكتب فيه غير مقصور على الإنكليزية وحدها، بل يتناول الفرنسية والألمانية؛ لهذا يجب أن يكون له — أي للتفكير — كلمة يعبر بها عنه في اللسانين الفرنسي والألماني.

إني أعتقد أن كلمة Pensée تعبر في الفرنسية على وجه التقرير عن ذلك الشيء، والذي يعبر عنه في الإنكليزية بكلمة Thought أي «فكرة»، على أنه من الصعب أن تعثر في الألمانية على كلمة تؤدي هذا المعنى. وقد ترددت حيناً في الاختيار بين Geist وكلمة Weltanschauung، وهما اصطلاحان كثيراً ما استعملما ليدللاً على الحياة الكامنة لعصر من العصور، غير أنني صممت فيما بعد على أن أستعمل كلمة Den Ken؛ لأن في هذه الكلمة ما ينافي المدرك من كلمة الحياة Life، و«ال فعل» Action، Leben und handeln، وهي تدل على العالم الداخلي، في حين أن مضاد Geist هي كلمة Stoff؛ أي «مادة» Matter في الإنكليزية، وكذلك كلمة Weltanschauung؛ فإنها فضلاً عما تدل عليه من عمق التعبير، وعلى كونها غير قابلة للترجمة إلى لغة أخرى؛ فإنها تدل على نتاج الفكر وثمراته أكثر من دلالتها على الفكر ذاته.

إذا انتقلنا من البحث في الكلمات إلى الموضوع ذاته، وجدنا أن ما في الاصطلاح الإنكليزي من دقة التعبير والتحديد قد صحبه انتشار كثير من المؤلفات في الموضوع، على أن الفكرة في فلسفة التاريخ ترجع في الأكثر إلى مفكريْن أبانتهم القارة الأوروبية، وعلى الأخص «هردر» Herder، و«كونت» Conte، و«جيزو» Guizot، و«فولتير» في كتابه «عصر لويس الرابع عشر»؛ فإن مؤلفات هؤلاء سوف تظل مثالاً لما يصور به عصر من عصور المدنية، غير أنني مع هذا مقتنع تماماً بالاقتناع بأن مؤلفات «كارليل» و«بوكل» Buckle و«دراپير» Draper، و«ليكي» Leckey، و«لسلي ستيفن» Leslie Stephen، وعلى

الأخص مقالة «مارك باتيسن» Mark Pattison من حيث السعة وبُعد النظر، هي التي ركزت في عقولنا معنى كلمة «فَكِر» Thought كأكثر المصطلحات كفاءة على تحديد ما نعني من الحياة الكامنة أو النشاط العقلي خلال عصر من العصور، أو أمة من الأمم؛ لهذا سوف أعكف على استعمال الاصطلاح الإنكليزي؛ لأنَّه عندي أكثر المصطلحات ملائمة وقرباً من أذهان القراء، وأمَّت في الوقت ذاته إلى الذين يعارضون في استعمال الاصطلاح الفرنسي وما يناظره في الألمانية لغموضهما، أن يبحثوا عن تعريف لما أقصد من الكلمة الإنكليزية Thought: أي «فَكِر».

ولست أعلم أن في الأدب الفرنسي برمه كتاباً في تاريخ «الفَكِر» Histoire de pensée تناول بالبحث عصراً طويلاً أم قصيراً من عصور النشوء الفكري، على أنني أعرف في الأدب الألماني عدداً من المؤلفات في تاريخ الفكر، غير أن معظمها قد استعمل كلمة Weltanschauung، أو أوسعَ من معنى الفكر فجعله يدل على عصر من عصور المدنية Kulturgeschichte، أو حدد دائِرته فأصبح قاصراً على تاريخ الأدب وحده. وجماع ذلك عائد إلى حاجة اللغة الألمانية إلى اصطلاح محدود المعنى كالاصطلاح الإنكليزي، على أنني مع هذا أعتقد أنَّ تصور «الفَكِر» على النمط الذي أمضى فيه وليد التقدم الشعوبية العام، وليس خاصاً بتقدم العقل الإنكليزي وحده، ولم يتمحض عنه الزمان إلا في العصر الذي أورخ فيه، وهو عصر كان أَخْصَ ما فيه من صور الارتفاع تبادل الفكريات بين الشعوب، بعد أن كسرت الأمم قيود الاستقلال بمنتجاتها العقالية.

لقد تحيز في عقل النابغة «توماس كارليل» ذلك التصور العميق الذي حَدَّا به إلى الاعتقاد بأن هناك كائناً عقلياً روحياً مختبئاً وراء الحركات العالمية الظاهرة؛ ذلك لأن «كارليل» كان أول من عني من علماء الإنكليز ببحث البواعت العقلية التي أنتجت ذلك التغير البين الذي نشده في أوروبا الحديثة. هو أول من خص كلمة «فَكِر» بمعنى خاص بها هو نفس المعنى الذي نخصها به في مبحثنا هذا، وجعل «الفَكِر» Thought موضوع دراسة خاصة للذين أتوا من بعده من الباحثين، هو الذي حدد «الفَكِر» وأوسع من دائرة البحث فيه، ففتح للعقل أوجهًا من التأمل في حقيقة الفكر، ولكنه مع هذا خلقه خلقة جديداً، فأخرج منه قوةً شَعَرَ بها كل إنسان، ووضع له اصطلاحاً لن تبلغ اللغات إلى وضع ما يُدانيه ضبطاً وتحقيقاً.

لا يوجد في كل اللغات الأوروبية اصطلاح كالاصطلاح الإنكليزي، الذي وضعه «كارليل»، يتضمن الفكرة في السبب والنتيجة معًا، ويجمع بين الأجزاء والكل المثالى.

وهو مع هذا اصطلاح لا يلزمنا العكوف على نظرية موضوعة أو مذهب شائع؛ إذ إن ذلك الاصطلاح يفسح للمفكرين الذين تختلف نظراتهم كل الاختلاف مجال النظر في حقيقته، من غير أن يفقد كل منهم شيئاً من استقلال فكرته.

في الحياة الإنسانية باعثان ساعدا على تقدم النوع البشري من الوجهة العقلية، وغالباً ما ظهر هذان الاباعثان بمظاهر التضاد في طريقة عملهما وتأثيرهما، غير أن الحقيقة أن أحدهما لن يستطيع أن يُحِدِّثَ مِنْ حَدِيثِ الْأَثْرِ، قبل أن يمده الْبَاعِثُ الْآخَرُ بقوته، ويزكيه بعنصره، أما الاباعثان: فانتشار المعرفة من جهة، وتكثفها من جهة أخرى. فالحيرة الفكرية، وحاجات الحياة العلمية، والتجارب اليومية الواقعـة بين ساعة وأخرى، كلها عوامل تتبعثـ على اتساع دائرة المعاـف الإنسانية، واستـخدام موادها وعناصرها.

على أن نماء المعرفة وتشعب أطرافها ليصبح معدوم الجدوى إن لم تتنبه المشاعر لخطورة شأنه، ولا يغيب عنا أن مطالib المعرفة وضروراتها من الخطر والشأن ما لاستجماع المعرفة ذاتها، مثلنا في ذلك كمثال من يريد أن يستكشف إقليماً ما؛ إذ كلما كانت النواحي التي نريد استكشافها أكبر مساحة، وأفقرت سعة، زدنا بحثاً عن الموضع التي تساعدنا على أن نبصر أكثر ما نستطيع من مناظر ذلك الإقليم التي تمتد إلى مرمى النظر أماماً وخلفاً.

غير أتنا مهما تذرعنا بالحيلة واهتدينا بالحدر، فغالب ما تكون المناظر التي تقع تحت حِسْنا خداعاً مضلة؛ ذلك لأنها تلزمنا غالباً أن نرجع بالنظر كرة ما استكشفنا من التواحي آنَّا فاتَّا؛ إذ تعطينا كلما تقدمنا إلى الأمام صورة أكثر وضوحاً عن متعرجاتها ومفاوزتها؛ وعن مواضع ما تحوي من الأشياء والأشباح، في حين أنها لا تلزمنا ذلك وحده، بل تبسط مع هذا لأنظارنا البقاء التي لم نستكشفها بعد، ومن ثم توحى إلينا، وتلقي في روعنا، ما يجعلنا نضرب بأقدامنا إلى الأمام، مسوقيين برغبة الوصول إلى استكشافات أخرى، بما تزين لنا من أمل، وما تهيء لنا من بواعث، تحملنا على أن نقدم في مخاطرتنا مأخذين بمزاجيات الرجاء للتحقق مما نبصر أمامنا إبصار غاشوة وكلال، قائسين كل هذا على تجارب الماضي، مدفوعين إليه بما تخلق قوتنا التصورية، وما يبدع الخيال والطبيعة الإنسانية في تلك الحال، حتى إن نجحنا في النزول إلى بسائط الأرض، ومضينا في بحثنا الاستكشافي على أدق نمط، لن تحررنا من الفكريات الثالثة في عقولنا ثبوتًا أوليًّا. تلك

الفكرات التي تكون قد طبعتها في عقولنا النظارات السطحية التي أقيناها على ما وقع تحت حسـنـاـ بـادـئـ ذـيـ بدـءـ، بـيـدـ أـنـهاـ فـكـرـاتـ كـثـرـ ماـ تـسـوـقـناـ إـلـىـ طـرـيقـ الضـلـالـ.

أما تكتـفـ المـعـرـفـةـ، وإنـ شـئـتـ فـقـلـ تـرـكـزـهاـ، فـجـائـرـ أـنـ يـنـقـلـ إـلـىـ نـوـاـحـيـ مـثـالـيـةـ منـ المـعـرـفـةـ، وـالـتـارـيـخـ يـنـفـحـنـاـ بـأـمـثـالـ كـثـيرـةـ مـنـ خـطـىـ التـقـدـمـ الإـنـسـانـيـ، فـطـالـماـ مـرـ عـلـىـ الإـنـسـانـيـ قـرـونـ اـسـتـجـمـعـ فـيـهـاـ أـسـوـاـ مـاـ تـسـتـجـمـعـ عـقـولـ، وـأـضـلـ مـاـ تـبـتـ الأـفـكـارـ وـالـأـفـهـامـ، وـلـكـنـ لـتـبـعـهاـ عـصـورـ لـلـتـقـيـفـ الـعـقـليـ لـمـ يـلـحـقـ بـهـاـ مـنـ أـمـثـالـ الـمـاضـيـ مـثـالـ، أـوـ لـيـبـرـزـ بـعـدـهاـ مـنـ مـوـاتـ الـعـقـولـ، وـجـدـبـ الـفـكـرـ، اـسـتـكـشـافـ حـدـيـثـ، أـوـ اـخـتـارـ رـائـعـ.

ولـقـدـ صـدـتـ المـذاـهـبـ الـخـدـاعـةـ وـالـخـيـالـاتـ الـبـعـيـدـةـ عـنـ الـوـاقـعـ تـقـدـمـ الـمـعـرـفـةـ، وـقـعـدـ بـيـهـمـةـ الـعـامـلـينـ طـوـيـلـاـ، فـيـ حـينـ أـنـ هـذـهـ الـخـيـالـاتـ الـخـدـاعـةـ لـاـ تـنـزـحـ عـنـ عـالـمـ الـفـكـرـ عـادـةـ إـلـاـ بـعـدـ عـنـاءـ طـوـيـلـ، وـجـهـودـ مـعـنـتـةـ، كـذـلـكـ فـتـحـ الـأـمـالـ فـيـ وـجـهـ الـإـنـسـانـ أـبـواـبـاـ لـلـبـحـثـ، وـمـهـدـتـ لـهـ سـبـيلـ الدـخـولـ إـلـىـ نـوـاـحـ مـنـ الـمـعـرـفـةـ لـمـ يـأـلـفـهـاـ مـنـ قـبـلـ، وـقـادـتـهـ إـلـىـ سـمـاءـ مـنـ الـعـلـمـ لـمـ يـبـلـغـهـاـ الـإـنـسـانـ إـلـاـ لـيـجـدـ أـنـ الـمـعـرـفـةـ الـإـنـسـانـيـةـ قـدـ تـكـثـفـتـ حـوـلـ حـقـيـقـةـ بـعـيـنـهـاـ، أـوـ مـضـتـ ضـارـبـةـ فـيـ الـمـاثـالـيـةـ إـلـىـ حـدـ الـخـيـالـ، غـيـرـ أـنـهـ تـمـ أـزـمـانـ فـيـ التـارـيـخـ يـلـوحـ لـنـاـ فـيـهـاـ أـنـ تـلـكـ الشـامـ الـيـانـعـةـ، وـالـمـنـتـجـاتـ الـطـرـيـفـةـ، قـدـ مـضـىـ بـهـاـ الـنـسـيـانـ، وـذـهـبـ بـهـاـ إـلـيـ الـإـغـفـالـ، وـتـرـدـتـ فـيـ نـاحـيـةـ مـنـ الـيـأسـ النـاتـجـ عـنـ الـجـهـلـ، أـوـ غـشـاهـاـ مـنـ مـغـشـيـاتـ الـقـنـوـطـ ماـ يـلـقـيـ فـيـ روـعـنـاـ خـطـأـ أـنـهـاـ ذـهـبـتـ ذـهـابـاـ لـاـ عـودـ بـعـدهـ.

ليـسـ مـنـ شـأـنـنـاـ فـيـ هـذـهـ الـمـوـطـنـ أـنـ نـبـحـثـ إـنـ كـانـ الـفـكـرـ فـيـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ قـدـ تـعـاقـبـتـ عـلـيـهـ صـورـ مـنـ تـلـكـ الـطـرـائقـ الـمـتـبـاـيـنـةـ، بـلـ نـكـتـفـيـ هـنـاـ بـالـقـوـلـ بـأـنـ جـهـودـ الـفـكـرـ خـلـالـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ فـيـ كـلـ الـاتـجـاهـيـنـ: اـتـجـاهـ نـشـرـ الـمـعـرـفـةـ وـاستـجـمـعـ أـسـبـابـهـ، وـاتـجـاهـ تـكـثـفـهـاـ فـيـ بـؤـرةـ مـثـالـيـةـ، كـانـتـ عـظـيمـةـ، ظـاهـرـةـ الـأـثـرـ، بـيـنـةـ النـتـائـجـ. أـمـاـ فـيـ الـاتـجـاهـ الـأـوـلـ فـقـدـ فـاقـتـ كـلـ مـثـيـلـاتـهـ مـاـ تـرـوـيـهـ بـطـوـنـ الـكـتـبـ وـصـفـحـاتـ الـتـارـيـخـ، فـيـ حـينـ أـنـهـاـ فـيـ الـاتـجـاهـ الثـانـيـ إـنـ كـانـتـ لـمـ تـبـلـغـ حـدـ الـمـاثـالـيـةـ الـإـغـرـيـقـيـةـ فـيـ عـصـرـ «ـبـرـكـلـيـنـ» Periclean age، وـلـمـ تـبـرـزـ الـنـهـضـةـ الـعـلـمـيـةـ فـيـ إـيطـالـيـاـ رـونـقاـ وـبـهـاءـ، وـلـمـ تـفـتـ مـنـ حـيـثـ الـأـثـرـ وـالـقـيـمةـ مـسـتـكـشـفـاتـ الـقـرـنـيـنـ السـادـسـ عـشـرـ وـالـسـابـعـ عـشـرـ فـيـ فـرـنـسـاـ وـإـنـكـلـتـرـاـ، فـيـنـاـ قـدـ أـبـرـزـتـ فـيـ صـورـةـ مـنـ الـمـصـطـلـحـاتـ الـلـغـوـيـةـ أـوـجـهـاـ مـنـ النـظـرـ، وـأـسـالـيـبـ مـنـ الـبـحـثـ أـقـرـبـ إـلـىـ النـفـعـ الـمـبـاـشـرـ لـلـإـنـسـانـيـةـ رـحـمـاـ، وـأـبـعـثـ عـلـىـ نـشـرـ الـمـعـرـفـةـ أـثـرـاـ؛ وـكـوـنـتـ تـصـوـرـاـ خـاصـاـ تـحـيزـ فـيـ الـعـقـولـ وـالـأـفـهـامـ عـماـ يـعـنـيـ مـنـ إـمـكـانـ وـحدـةـ الـمـعـرـفـةـ الـعـامـةـ.

مـنـ زـمـانـ لـيـسـ بـعـيـدـ صـرـفـتـ كـلـمـةـ «ـحـقـ»ـ أـوـ «ـحـقـيـقـةـ»ـ Truth لـتـدلـ عـلـىـ الـغاـيـةـ مـنـ الـمـعـرـفـةـ، وـعـلـىـ مـاهـيـتـهـاـ، لـاـ عـلـىـ الـطـرـيـقـ الـمـثـلـيـ وـالـسـبـيلـ الـقـيـمـةـ الـتـيـ تـتـبـعـ لـاستـيـعـابـ الـمـعـرـفـةـ

فحسب «الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة»، ذلك هو المبدأ الذي تعلق بأهدابه الرأي السائد كقاعدة لاستيعاب المعرفة؛ إذ كان المعتقد العام أن الحق كله ليس بشيء سوى توحيد المعرفة أينما وجدت، وحيثما اتفق أن تكون.

أما الآن، فإني أعتقد أن الباحثين من العلماء وال فلاسفة معًا لقانعون بأن حب الحقيقة إذ يدل دلالة صحيحة على نزعـةـ العـقـلـ إـلـىـ الـبـحـثـ، إلا أنه غير كافٍ لتحديد الأساليب التي تتبع للوصول إلى المعرفة، أو إلى غاياتها العامة.

«ما هي الحقيقة؟» هذا سؤال لم يعثر له العقل على جواب حتى الآن، يدل ذلك على أن الإنسان لم يعثر بعد على دستور محكم يتزده هادياً مرشدًا للبحث وراء الحقيقة. وإنه ليكون من أبعث الأشياء على الحزن والأسى، بل إنه ليكون طامة كبرى، ومصيبة مجتاحة، لو ذهبت الفكريات الأدبية الخاصة بالبحث وراء الحقيقة، وصحة المعتقد من نفوس العمال الناشطين إلى العمل، ومن وجdan المفكرين المتثبتين إلى البحث، غير أن علمنا بمستحبـنـاتـ طـبـيـعـتـناـ الأـدـبـيـةـ: كـحـبـ الـخـيرـ وـالـصـلـاحـ، وـحـسـ الـجـمـالـ وـالـشـعـرـ، لا يـبـدـأـ في الـوـجـودـ بـمـجـرـدـ تـعـرـيـفـهـاـ، وـلـاـ يـنـمـوـ بـتـحـديـدـهـاـ وـنـحـنـ فـيـ سـنـيـ طـفـولـتـنـاـ، حيثـ نـعـدـمـ الـقـدـرـةـ علىـ التـفـكـيرـ، إنـ كـنـاـ نـسـتـوـعـبـ مـعـانـيـ تـلـكـ الـحـاسـاتـ الـأـدـبـيـةـ مـنـ لـغـتـنـاـ، فـإـنـهـ مـعـ ذـلـكـ مـلـعـانـ قـلـمـاـ تـزـدـادـ فـيـ نـفـوـسـنـاـ غـورـاـ وـثـبـاتـاـ مـنـ طـرـيـقـ الـفـوـارـقـ الـمـنـطـقـيـةـ الـتـيـ نـسـتـوـعـبـهـاـ، وـالـتـيـ تـخـضـعـ لـهـ عـقـولـنـاـ فـيـ مـسـتـقـبـلـ حـيـاتـنـاـ؛ ذـلـكـ لـأـنـ الـنـطـقـ لـنـ يـتـنـاوـلـ الـمـاهـيـةـ بـأـثـرـ، فـيـ حـينـ أـنـهـ كـثـيرـاـ مـاـ يـهـدـمـ مـنـ مـعـتـقـدـاتـنـاـ الرـسـيـسـةـ فـيـ نـفـوـسـنـاـ.

لقد تبدل العلم الحديث من متجه النظر للبحث وراء الحقيقة، بأسلوب قيم للبحث والتنقيب، وذلك الأسلوب لا يدرس الدرس الوافر إلا بالاختبار والصبر على المشاهدة، كما أنه لا يُستوعب بمجرد الوصف النظري. كان أول ما وضع ذلك الأسلوب في مؤلفات أولئك من أبطال العلم الحديث منذ عصر « غاليليو Galileo » و « نيوتن Newton » والعصور التالية. أولئك الذين استمدوا من موهبات ذلك الأسلوب فنجحوا كل نجاح، ومن كتاباتهم وتواليفهم استمد الفلاسفة منذ عصر « باكون Bacon » و « كونت Conte » و « ميل Mill » تلك الم هيئات التي توصلوا بها إلى انتزاع الأسلوب العلمي الحديث من فوضى الماضي.

إن الكلام في هذه الأساليب سوف يستغرق الشطر الأعظم من عنايتنا، على أننا سنقصـرـ القـوـلـ الآـنـ عـلـىـ أـنـ الغـرضـ الـذـيـ تـرـمـيـ إـلـيـهـ الـمـاـبـاـثـ الـعـلـمـيـ هوـ إـطـلاقـ حرـيةـ الـبـاـحـثـ فـيـ اـخـتـيـارـ أـيـ مـنـ الـأـسـالـيـبـ الـعـلـمـيـةـ الـتـيـ تـلـذـ لـهـ؛ فـإـنـ الـبـاـحـثـ الـعـلـمـيـ الـبـحـثـ لاـ يـعـرـفـ إـلـىـ أـيـةـ نـهـاـيـةـ سـوـفـ تـقـوـدـ خـطـوـاتـهـ. إـنـهـ يـكـفـيـ بـأـنـ يـكـوـنـ عـلـىـ عـلـمـ بـمـاـ بـيـنـ يـدـيـهـ.

إن العلم الحديث يحدد الأسلوب ويكتشف الوسيلة، ولكنه لا يعين الغرض ولا النهاية. إنه قائم على علم العدد والاستنتاج. وعلى الجملة قائم على الأساليب الرياضية. وتقديم العلم موقوف على إدخال أسلوب التفكير الرياضي في الموضوعات التي تلوح على ظاهرها بعيدة عن علم الرياضة، كما أنه مشروط على انتشار الأساليب الرياضية، وتنمية القوة المضادة، ولديك اصطلاحان: «تام» Exact و«يقيني» Positive، فإنهم يتخذان في لغات القارة واللغة الإنكليزية على الأخص؛ ليدوا على تلك الأساليب وعلى طريقة تطبيقها. ولقد يظهر لأي من أولئك الذين لم يعنوا أنفسهم بالاشتراك في الإنتاج العلمي، أن الباحث باتباعه أسلوبًا محدودًا غير قابل للتحوير إلا في مفصلاته دون طبيعته، أو بالجنوح إلى نواحٍ من البحث تسوق إلى شعبٍ من المعرفة، إن كانت محدودة بينة، إلا أنها تذهب في تشعبها إلى لا نهاية ولا آخر، يفقد يوماً بعد يوم تلك الفكريات العليا في العلم، ويعدم صفة التركيز والتكتف العلمي، وعلى الجملة يخسر كل النزعات المثالية التي توحد المعرفة: تلك الأشياء التي يلوح أَنْ تفوق المعرفة وتقدمها موقوفان عليها.

هذا أمر محظوظ أن يطرأ على فكر كل من عكف على الآراء والأساليب العتيقة،<sup>٦</sup> أما اليوم، في عهد الرقي الحديث، فإن وحدة المعرفة، ونظمها وألفتها، وكمالها وتناسق صورها الظاهرة، والحقيقة والجمال، ليست بأشياء تقع في سبيل الباحث العلمي ليتخذها قواعد مباشرة لبحثه، وليس لها في نظره من قيمة أكثر من قيمة تلك الأسرار الخفية السحرية التي كانت تنسبها بعض مدارس الفلسفة للأعداد.<sup>٧</sup>

على أننا إن كنا لا نزال نعيش مأخذين بفتنة تلك الأشياء وأمثالها، وعلى أننا نعمل جهد ما نستطيع لنخلص من مؤثراتها النفسية، فإننا مع هذا يجب أن نسلم بأن ما في طبيعة الأشياء من صبغة الشعر والفلسفة والدين قد أخذت تفقد شيئاً فشيئاً تأثيرها في عالم العلم. إنها لا ترسم للبحث العلمي طريقاً، ولا تفرض عليه أسلوبًا من أساليبها. لقد أصبح العلم بلا حاجة لأن يستمد منها العون والمساعدة، ولكننا يجب أن نتساءل: هل خسر الطرفان بانبيات صلتهما شيئاً ما؟ أما العلم ففي مستطاعه أن يفخر بأنه قد بلغ بذلك الانفصال درجة من الكمال الشكلي، ونال قسطاً من التقدم والارتقاء عدمهما طوال القرون الأولى.

<sup>٦</sup> في الأصل: القتيبة، والصواب ما ورد في المتن كما يقتضي السياق «الحرر».

<sup>٧</sup> فيثاغورس ومدرسته أول من نسب للعدد خواص سرية في عصور الفلسفة اليونانية.

ليس ذلك وحده ما وصل إليه العلم من هذه الطريق؛ فإنه قد ربح شيئاً لم يعهد له خلال العصور القديمة والقرون الوسطى؛ ذلك الربح ينحصر فيما وقع من وجود الارتباط بين العلم وبين أوجه الحياة العلمية. إن تلك الروح الرياضية التي حكمت بأمرها في أساليب العلم وقواعده، أصبحت كذلك حاكمة بأمرها في التجارة والتبادل والصناعة، وهي آخذة اليوم في التغلغل إلى المهن: كالطب والقانون والإدارة؛ لأن هذه الوظائف الاجتماعية قد أصبحت في العصر الحديث ذات آصرة وصلة بالأعداد والمقاييس والموازين، وبامتدادات الزمان والمكان، حيث أضحت من مقتضيات وجودها أن تلجم إلى أساليب من الإحصاء والتناسب، وهي أشياء لن نستطيع بغيرها أن نحقق مخادعات الاقتناع الذاتي، أو نزعات الأفراد الفكرية، من طريق عملٍ.

كذلك لا يجب علينا أن نغفل عن أن المسائل المطلوب من العلم حلها، قد زادت وتکثرت بنسبة عظيمة، فإن كلّ تقدم يقع في العلم، إن أعطانا قوة جديدة نتسود بها على ظاهرة من الظاهرات في عالم الحياة؛ فإن كلّ نبأ يقع في عالم الحياة يخلق لنا أوجهًا جديدة من البحث العلمي تطالعنا ضرورة بغض مشكلاتها، فإن العلاقة بين العلم والحياة قد زادت خلال القرن التاسع عشر ترابطًا واتصالًا. وهذا أمرٌ أبلغُ ما كان أثراً في الموازنة بين الخطوات التي خطتها الأساليب العلمية الحديثة؛ فإن هذه الأساليب إن تُركت لِتَمْضِي حرفة من مؤثرات الحياة فيها، لأدت إلى أوجهٍ من التخصص لا نهاية لها؛ لأن من خصائص المسائل العملية أنها لن تستقلّ عمما يحيط بها، على العكس من الاختبارات العلمية؛ ذلك لأن المسائل العملية في الحقيقة تلزمها ضرورة الانتباه إلى كثير من الظروف والحالات المحيطة بنا، وأن تلقي بنظرنا دائماً على الحياة، لا في مفرداتها، بل في مجموعها، وأن ننظر في حاجاتها ومقتضياتها.

إذا فخر القرن التاسع عشر بأنه وضع أساليب إيجابية تامة احتذها العلم، واتخذت في الحياة مناراً وهدياً، وأنه ضاعف من قيمة العلم، وزاد من خطر الحياة، فما زال أمامنا سؤال لا نجد لأنفسنا عذرًا في إغفاله، نتساءل: ألم ينتاج القرن التاسع عشر من نتاج يحافظ على تلك المثاليات القديمة التي ناء عليها الزمان شيئاً من قيمتها: مثاليات الحقيقة والجمال والحكمة، تلك التي أخذت في القرون الأولى على أنها أساس الوحدة في العلم والحياة، وعلى أنها مبدأ الألفة المبنية في تضاعيفهما؟ وماذا جرى على الفلسفة والفن والدين؟ وهي التي أمدتها المثالية الفكرية بكل عنایتها، وحملتها عبء القوامة على كثير في فروع المعرفة والعمليات، أن ينفرط عقد وحدتها، وتتصدع حزمتها، وحصرت فيها كل

الأمل؛ لتنجي النوع البشري من خطر التطوح إلى إنكار أوجه الترابط وضروب التعاون الواقعـةـ بـينـ كـلـ الحـاجـاتـ الإـنسـانـيـةـ؟

أما إذا كان قد ثبت في يقيني ومعتقدي، أن القرن التاسع عشر لم يكشف عن تصورٍ أبعد خطراً من التصور القديم إزاء الوحدة التي تربط بين الحاجات الإنسانية، وإزاء الحياة الكامنة في الإنسان، وفي النوع البشري كله، لـما فكرت ساعة واحدة في أن أمضي في إتمام مؤلفي هذا؛ لأن غايتها منه تتحصر في أن أكشف عن أوجه التعاون التي ربطت بين كثير من العوامل والبواطن خلال القرن التاسع عشر، في عالمي الفكر والعمل.

أريد أن أظهر به حقيقة ذلك الاعتقاد الحق، الذي يسوقنا إلى التيقن من أن كل المجهودات العقلية لا بد في أن تتحد معاً؛ لتنتج الملوكات المثالية التي خص بها النوع الإنساني، وتقوم حفيظة عليها. أود أن أثبت فيه أن ذلك الكنز المقدس لا يحتفظ بما فيه، ولا يزيد مستخرزنه، مجهودٌ فردٌ بعينه، أو متوجه بذاته يتوجه فيه الفكر، بل إن بقاءه ونمائه مقصوران على أن تتعاون الأفراد والأمم في حياتهم الشعوبية العامة المشتركة، على أن يصلوا به إلى تلك الغاية.

لقد دخل على اللغات خلال القرن التاسع عشر عدّة من المصطلحات نَحْتَهَا واضطـوـعـواـ المـذاـهـبـ الـفـلـسـفـيـةـ؛ لـتـدـلـ عـلـىـ تـلـكـ الـوـحـدةـ الـكـائـنـةـ فـيـ صـمـيمـ الـحـيـاةـ الـكـامـنـةـ لـلـنـوـعـ الـبـشـرـيـ. استعمل «هيجل» كلمة Geist؛ أي فكر، واستعمل «كونت» كلمة Humanity؛ أي إنسانية، واستعمل «لودن» كلمة Microcosm؛ أي العالم الأصغر، ويعني به الإنسان، واستعمل «هربرت سبنسر» كلمة Social Organism؛ أي الكائن الاجتماعي. استعمل كلُّ منهم اصطلاحاً مختلفاً، ولكنها في الحقيقة لم تكن إلا أوجهًا مختلفة لموضوع واحد. وإنه من أخطر مظاهر الفكر أن تلحظ كيف أن مدارس المثالية الكبرى في ألمانيا، ومدرسة العلم اليقيني في فرنسا، ومدرسة النشوء العقلي والطبيعي في إنكلترا، على الرغم مما يلوح فيها من روح التحليل، لا من روح التوحيد، قد اشتراك جماعها مع الانقلابات الاجتماعية مشفوعة بالثورة الفرنسية العظمى، وبتخصيص العلم، في الاحتفاظ بوحدة الحياة الإنسانية، والقوامة على حاجاتها ومطالبيها.

الراجح عندي أن كلمة «فكـرـ» Thought قابلـةـ لأنـ تـطـبـقـ أـوـسـعـ طـبـيقـ، وفيـهاـ منـ الخـصـائـصـ ماـ يـجـعـلـهاـ تـدـلـ عـلـىـ أـيـةـ حـقـيـقـةـ أـوـ تـقـيـيمـ عـقـلـيـ قدـ تـحـويـهـ تـلـكـ الأـغـرـاضـ المتـحدـدةـ، وـتـلـكـ الـمـحاـولـاتـ الـتـيـ تـتـبـتـهاـ آـمـالـ الـعـصـرـ الـحـدـيثـ، عـلـىـ أـنـيـ أـعـتـقـدـ مـعـ هـذـاـ أـنـ وـضـعـ تـارـيـخـ لـتـلـكـ الـفـكـرـ يـكـونـ بـمـثـابـةـ وـضـعـ تـعـرـيفـ جـامـعـ مـانـعـ لـلـفـكـرـ فـيـ مـجـمـوعـهـ.

ولقد صُرف كثير من الجهد خلال القرن التاسع عشر في سبيل الوصول إلى عرض يشابه عرضي هذا، لذلك أرى أن تناول تلك الناحية الخاصة من الأدب الحديث ببحث موجز لا يخلو منفائدة ونفع.

لست أشك في أننا قد قضينا عصر البحث الأنسيكلوبيدي في تحري المعرفة. لقد غشى العصر الأنسيكلوبيدي الفكر قرناً كاملاً، من أواسط القرن الثامن عشر إلى أواسط القرن التاسع عشر، أي من عام ١٧٥٠ إلى عام ١٨٥٠.

على أن الفكرة في ترتيب المعرفة على النمط الأنسيكلوبيدي ترجع إلى زمان أبعد من هذا، ترجع إلى الزمان الذي عقب تمخض الفكر عن الأسلوب العلمي الحديث. إن اللورد «باكون» *لاؤُل* واضح لذلك الأسلوب، غير أنه عجز — كما عجز أكبر عقل أنسيكلوبيدي أنبته العصر الحديث؛ وهو عقل «ليبنتز» Leibniz — عن أن يبلغ الغاية من تحقيق الغرض الأسماي من تلك الفكرة، وظل تحقيقه مقيتاً لنبوغ «ديدرو» Diderot وعقريه «دامبير» D'Alembert في فرنسا، خلال القرن الثامن عشر، فأخرجها ومنتبعهما من العظام، إلى حيز الواقع، ما رسمه «باكون» في كتابه «النظام الحديث» Novum Organum في حيز النظر، واستجمعا كل المعرفة التي ذاعت لعهدهما منذ أن خلص العلم من مؤثرات اللاهوت، ووضعها في كتاب واحدٍ محبوبٍ كأطرافه، متواصلة حلقاته.

لقد كان للأنسيكلوبيديين من عملهم غرضان؛ الأول: نشر المعرفة، والثاني: تحقيق أن المعرفة الإنسانية عبارة عن كلّ لا تنفصل أجزاءه. أما الغرض الأول، وهو الناحية العملية؛ فقد صادف نجاحاً، وأما الغرض الثاني، وهو الناحية الجوهرية من فلسفتهم، فقد اطرح وتنوسي تدرجاً على مر السنين.

لقد أشار «ديدرو» و«دامبير» إلى وحدة الفكر والمعرفة؛ الأول فيما كتب تصميماً للأنسـيـكـلـوبـيـذـيـةـ — موسـوعـةـ الـعـارـفـ Prospectus — والثـانـيـ فيـ المـقـدـمةـ Discours Gruber، وأشار إليها في تمهيد موسوعة «إرش» Ersch و«جروبر» Preliminary Encyclopedia Metropolitana، وكذلك في مقالة «كوليردج» المشهورة في علم الأسلوب التي كتبها «للأنسيكلوبيدية العالمية» Encyclopedia Metropolitana، غير أن نتيجة كل هذا الجهد قد أظهرت ما خفي على لورد «باكون»، من أن تقسيم المعرفة تقسيماً تراويع فيه قاعدةً ما من قواعد المنطق، أو يُستهدي فيه بالخصائص التاريخية التي لازمت بدايات كل فرع من فروع المعرفة الإنسانية، لن يحتفظ في النهاية بوحدة المعرفة، ولن يسلم إلى بقائها كاماً واحداً.

فإن العمل في سبيل تقدم العلم والمعرفة إن أصبح مفرقاً على عدة علوم مختلفة، و وكل به إلى كثير من الباحثين يستقل كلّ منهم بجهة منه، فإنه لن يظل محصوراً في دائرة محبوك طرفاها، بل يخرج إلى سلم حلزوني يزداد اتساعاً كلما ازداد ارتفاعاً، ويفترق عن أصله الذي يرتکز عليه تدرجًا كلما أمعنت حلقاته في التزايد؛ ذلك هو الأثر الذي تتركه في نفوسنا نظرة تأملٍ نلقیها على المجلدات التي خلفها «إرش» و«جروبر» غير كاملة، وهو بذاته الأثر الذي تخلفه في يقيننا معرفتنا أن مؤلفات عمرنا بما فيها من الفوائد العظيمة، وقربها من متناول العامة، قد قضت القضاء الأخير على تلك المقامات الفلسفية والمحاورات التمهيدية، التي كانت تصدر بها الكتب في الماضي، لا شيء إلا ليحتفظ من طريقها المؤلفون بظل من الوحدة والأسلوب، والتي رضي مؤلفوها بأن تكون معاجم للمراجعة لا غير.

ولقد دلت طريقة صوغ المعرفة على النمط الأنسيكلوبيدي، وهي ليست إلا تنفيذاً لنظرية لورد «باكون»، على أن انتشار العلم وتطبيقه عملياً شيئاً لا بد من أن يسوقانا إلى تحليل المعرفة والفكر، لا إلى توحيدهما، ومما لا مرية فيه أن قيام اعتقاد مشابه لهذا الاعتقاد في يقين علماء ألمانيا كان السبب الذي حدا بالجامعات الألمانية إلى إلقاء المحاضرات التي كانت تُلقى في الأنسيكلوبيدية. ولقد ذاع إلقاء تلك المحاضرات وعم تدریسها في فجر القرن التاسع عشر، عندما خضع التعليم لتأثير «كانت» Kant، و«فيخته» Fichte، و«شلير ميخر» Schleier macher، فأحدث ذلك عصراً جديداً سادت فيه فكرة أن وحدة المعرفة وكمالها وتعيمها أمور يمكن أن يبلغ إليها من طريق توحيد طرق الدرس وتنظيمها على نموذج واحد. ذلك العصر هو آخر عهد الفلسفة بالقبض على خناق كل فروع المعرفة، وبصدقها البحث العلمي عن الانبعاث في طريقه القيمة. تسودت الفلسفة هناك عندما أيدتها الحوادث السياسية، وزكتها الأغراض المثالية الخيالية، وعاونتها روح كريمة من التضحية الذاتية، ممسوسة بشعور قيم أوحى إلى أبناء ألمانيا أن عليهم لأمتهم واجباً واحداً القيام به مشروط على تعاونهم، وكان أظهر ما في ذلك الشعور انضواء فلاسفة ألمانيا وباحتياها الأعلام تحت لوائه، والإذعان لموحياته.

وكان لانتشار تلك الروح أثر عظيم في خلق صورة من التعاون المتبادل، لا يدانها خطراً ومكانة إلا تزكيتها لفكرة وحدة المعرفة، فمهدت لكثير من المذاهب الفلسفية – التي خيل للناس أن فيها من الفوائد أكثر مما في استطاعتها أن تنتاج – سبيل الانتشار والذيع. هنالك ألقى في روع الناس أن أسفار الأنسيكلوبيدية شيء أكبر خطراً من تلك

الصفـةـ الـفـارـغـةـ،ـ وـالـهـيـكـلـ الـأـجـوـفـ الـذـيـ رـآـهـ فـيـهاـ أـبـنـاءـ الـعـصـرـ التـالـيـ،ـ طـنـ أـنـ فـيـ تـلـكـ الـأـسـفـارـ قـدـرـةـ عـلـىـ نـشـرـ الـعـرـفـةـ،ـ وـالـاحـفـاظـ بـهـاـ كـمـاـ حـيـاـ،ـ فـائـضاـ بـالـوـحـدـةـ وـالـقـوـةــ.ـ هـذـهـ الصـورـةـ الـفـكـرـيـةـ،ـ الـتـيـ سـوـفـ تـسـتـغـرـقـ قـسـطـاـ كـبـيرـاـ مـنـ اـنـتـبـاهـاـ،ـ قدـ مـحـيـتـ الـآنــ.ـ إـنـكـ لـنـ تـقـعـ فـيـ النـصـفـ الـأـخـيـرـ مـنـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ عـلـىـ مـاـهـيـةـ الـلـمـعـرـفـةـ تـرـكـزـتـ فـيـ قـاعـدـةـ فـلـسـفـيـةـ،ـ أـكـثـرـ مـنـ وـقـوـعـكـ عـلـىـ وـحدـةـ الـفـكـرـ،ـ وـتـمـاسـكـ أـطـرـافـهـ،ـ فـيـ مـقـالـاتـ مـتـفـرـقـةـ مـرـتـبـةـ عـلـىـ حـرـوفـ الـهـجـاءـ،ـ وـلـيـسـ فـيـهـاـ مـنـ مـعـنـىـ الـوـحـدـةـ إـلـاـ ضـمـمـهـاـ مـعـاـ بـيـنـ دـفـتـيـ كـتـابـ وـاحـدــ.ـ لـقـدـ كـانـ الـغـرـضـ مـنـ تـلـكـ الـمـعـجمـاتـ الـأـنـسـيـكـلـوـبـيـذـيـةـ غـرـضاـ عـمـلـيـاـ بـحـثـاــ.ـ كـانـ الـغـرـضـ مـنـهـاـ وـضـعـ وـسـلـةـ قـرـيبـةـ الـفـائـدـةـ لـنـشـرـ الـعـرـفـةـ،ـ لـمـ يـرـاعـ فـيـهـاـ تـقـسـيمـ الـفـلـسـفـةـ إـلـاـ تقـسـيـمـاـ شـكـلـيـاــ.ـ وـلـمـ تـنـتـجـ مـنـ فـائـدـةـ إـلـاـ فـيـ أـصـيقـ دـوـائرـ الـبـحـثـ وـالـإـسـتـرـشـادــ.

إـنـ عـصـرـ الـدـرـسـ عـلـىـ الـطـرـيـقـ الـأـنـسـيـكـلـوـبـيـذـيـةـ،ـ وـذـلـكـ الـعـصـرـ الـقـصـيرـ الـذـيـ نـمـتـ فـيـ «ـالـشـكـلـيـةـ الـفـلـسـفـيـةـ»ـ Philosophical Formalismـ لـعـصـرـانـ يـلوـحـانـ لـنـاـ كـأـنـهـماـ تـابـعـانـ للـمـاضـيـ،ـ غـيرـ أـنـ «ـالـرـغـبـةـ»ـ فـيـ تـوـحـيدـ الـمـعـرـفـةـ وـجـمـعـهـاـ فـيـ بـئـرـةـ وـاحـدـةـ،ـ وـتـحـقـيقـ الـصـلـةـ الـكـائـنـةـ بـيـنـ الـفـكـرـ وـبـيـنـ الـاـرـتـقاءـ،ـ قـدـ بـلـغـتـ غـايـةـ لـمـ تـبـلـغـ إـلـيـهـاـ خـلـالـ الـعـصـورـ الـأـولـىـ،ـ فـلـاـ ضـخـامـ الـمـعـاجـمـ الـشـوهـاءـ،ـ وـلـاـ اـتـخـازـ الـقـوـاـعـدـ الـنـظـرـيـةـ الـجـوـفـاءـ عـلـىـ أـنـهـاـ تـامـةـ لـتـرضـيـ الـيـوـمـ ذـلـكـ الـمـعـقـدـ الـعـمـيقـ الـذـيـ تـعـمـلـ كـلـ الـنـوـاـتـجـ الـعـقـلـيـةـ عـلـىـ إـنـمـائـهـ وـمـدـدـ بـمـهـيـئـاتـ الـحـيـاـةـ؛ـ اـعـتـقـادـ أـنـ الـإـنـتـاجـ الـعـقـلـيـ كـائـنـ حـيـ مـتـحـيزـ الشـخـصـيـةـ لـاـ نـهـاـيـةـ لـتـنـوـعـ صـورـهـ،ـ وـلـاـ غـايـةـ لـاـخـلـافـ مـظـاهـرـهـ وـأـشـكـالـهــ.

وـلـقـدـ ثـبـتـ فـيـ روـعـ الـبـاحـثـيـنـ أـنـ بـعـثـ الـفـكـراتـ الـفـرـديـةـ مـنـ خـمـودـهـاـ،ـ وـاستـحـدـاثـ صـورـ الـحـيـاـةـ وـالـتـغـيـيرـ ضـرـورـةـ أـولـيـةـ،ـ كـضـرـورـةـ الـعـكـوفـ عـلـىـ أـسـلـوبـ ماـ،ـ أـوـ اـنـتـحـالـ مـذـهـبـ بـعـينـهـ،ـ أـوـ اـتـبـاعـ نـظـامـ بـذـاتـهــ.ـ وـلـقـدـ سـهـلـتـ هـذـهـ الـفـكـرـةـ خـلـالـ الـخـمـسـيـنـ عـامـاـ الـفـارـطـةـ سـبـلـ الـتـبـادـلـ الـعـقـلـيـ بـيـنـ الـأـمـمـ،ـ وـهـوـنـتـ عـلـىـ الـكـاتـبـيـنـ تـدوـيـنـ أـوـجـهـ النـشـوـءـ الـتـيـ وـقـعـتـ فـيـ تـارـيـخـ فـرـوعـ الـعـلـمـ وـالـمـعـرـفـةــ.

وـلـقـدـ أـمـدـتـ عـوـاـمـلـ كـثـيـرـ ذـلـكـ الـغـرـضـ الـأـولـيـ بـمـهـيـئـاتـ النـمـاءـ؛ـ فـالـفـرـنـسـوـيـونـ الـذـينـ كـانـواـ فـيـ أـوـلـ ذـلـكـ الـعـهـدـ أـسـاتـذـةـ الـعـلـمـ بـدـعـواـ اـجـتـياـزـ السـبـيلـ بـتـأـسـيـسـ عـدـةـ مـنـ الـمـجـلـاتـ الدـوـرـيـةـ،ـ تـعـنـىـ كـلـ مـنـهـاـ بـفـرعـ مـنـ فـرـوعـ الـعـلـمـ الـمـخـلـفـةـ تـنـمـيـةـ وـتـتـعـهـدـهـ،ـ وـتـقـومـ عـلـيـهـ حـفـيـظـةـ،ـ وـعـلـىـ بـقـائـهـ كـفـيـلـةـ،ـ وـمـنـ ثـمـ تـبـعـهـ الـأـلـانـيـوـنـ،ـ وـمـنـ بـعـدـهـمـ الإـنـكـلـيـزـ،ـ وـلـقـدـ زـادـ تـبـادـلـ الـفـكـراتـ الـعـلـمـيـةـ بـيـنـ النـاسـ ذـيـوـاـ مـنـذـ أـنـ تـأسـسـ جـمـاعـةـ تـقـدـمـ الـعـلـمـ الـبـرـيـطـانـيـةــ.ـ سـنـةـ 1821ـ،ـ وـكـانـ «ـأـوـكـنـ»ـ Okenـ قدـ أـسـسـ جـمـاعـاتـ شـبـيـهـةـ بـالـجـمـاعـةـ الـبـرـيـطـانـيـةـ قـبـلـ

ذلك بعشر سنوات في ألمانيا، غير أنه كان لألمانيا أكبر الأثر في إصدار الموسوعات السنوية الخاصة بتقدم العلوم؛ حيث كانت تنتقد المباحث العلمية، من غير اعتبار مصادرها الوطنية، ثم تقسم وتتبوّب على قاعدة وضع فروع العلم المختلفة كل منها في حيزه الخالق به في كفاءات العقل الإنساني.

ولقد قام في النصف الأول من القرن التاسع عشر في ألمانيا حركة انتقاض ضد الطريقة التي كانت تعالج بها الموضوعات العلمية على قاعدة ميتافيزيية – غبية – تلك الطريقة التي بالغ في اتباعها مدرستا «شيلنج» و«هيجل». ولقد ساعد اقتباس أساليب الاختبار والمشاهدة على الأسس التي دعمها الفرنسيون والإنجليز، كما عاون تأسيس المعامل الكيمياء، والمراصد الفلكية، والسياحات الطويلة التي أفققها الباحثون في سبيل الاستكشاف، وتطبيق القواعد العلمية في الإنتاج الصناعي، على استجمام كثير من مواد المعرفة العامة.

ولقد أخذ الباحثون منذ زمان مضى يفقدون الثقة بكل المحاولات التي أريد بها تركيز المعرفة وتوحيدتها، حتى في مجال الاستنتاج العقلي التام، المحرر عن نزعات الغيب وما وراء الطبيعة، فكانت نتيجة ذلك، وعلى الأخص في ألمانيا، أن منتجات كثير من العلوم أصبحت تُدفن بين صفحات المجالس الدورية، وفي المذكرات التي اعتادت الجماعات العلمية حفظها في مكاتبها. أما المدون العلمية، فأخذ يكتبه مؤلفون من الطبقة الثانية، أو ينقلها عن الإنكليزية والفرنسية مترجمون احتذوا في نقلها طرقاً عتيقة بالية.

ولقد اختصت بضعة عقول فياضة كبيرة ببث تلك الروح التي خمرت البحث العلمي في أواسط القرن التاسع عشر، وتلك عقول كبيرة ظلت غير معروفة خلال ذلك العصر، شأن العقول التي تظهر في أزمان لا تلائمهما، على أن ثلاثة العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر قد كفلت تغيير ذلك كله؛ فإن وسائل الاتصال بين الباحثين التي أدخلينا بالكلام فيها من قبل، جعلت انبثاث أسباب التواصل في العلم أمراً مستحيلاً، فدعت الضرورة إذ ذاك إلى التبدل من النظام القديم الذي ظل متبعاً في برامج التعليم الأدبي في معاهد العلم، بأخر أكثر انطباقاً على الأساليب الحديثة.

وتطلع كثير من أصحاب العقول الفذة لكتابه مدون صحيحة في العلوم التي كانوا يعالجونها؛ فأدى ذلك الأمر إلى إصلاح كثير من وجوه الخلل الذي ساد تلقين العلم في المعاهد العليا، وفي الوقت ذاته، وبعد مضي خمسين عاماً أفققها الباحثون في البحث الاختباري، واستجمام مواد المعرفة الأولية، شعر العلماء بضرورة النظر في المبادئ الأولية

التي بُني عليها التفكير العلمي، نظرة نقد وتحليل، عثر الباحثون إذ ذاك على روح خاصة من الفلسفـةـ، لا من الغـبيـاتـ وما وراء الطـبـيعـةـ، ممزوجـةـ بـحدـودـ العـلـمـ الصـحـيـحـ مندمـجـةـ فـيـهـاـ، فإـنـكـ فيـ الـعـلـمـ الـمـجـرـدـ الصـحـيـحةـ، وـعـلـىـ الأـخـصـ فـيـ الـرـيـاضـيـاتـ، تـجـدـ أنـ التـقـدـمـ الـحـقـيـقـيـ مـرـهـونـ عـلـىـ اـسـتـكـشـافـ أـسـالـيـبـ بـسـيـطـةـ أـولـيـةـ، وـطـرـقـ لـمـعـالـجـةـ تـلـكـ الـعـلـمـ تـامـةـ النـفـعـ، قـرـيـبةـ التـناـولـ، كـمـ أـنـهـ مـوـقـوفـ عـلـىـ الـكـشـفـ عـنـ الـمـبـادـئـ الـتـيـ تـحـقـقـ وـحـدـتهاـ، وـالـمـاـهـدـ الـتـيـ تـضـمـنـ تـعـمـيمـهاـ.

كلـ هـذـاـ لـيـسـ بـشـيـءـ سـوـىـ عـلـائـمـ الـحـيـاةـ الـحـدـيـثـةـ، وـدـلـائـلـ التـقـدـمـ وـالـارـتـقاءـ النـشـوـئـيـ.ـ أماـ السـبـبـ الـكـامـنـ وـنـتـيـجـتـهـ، وـتـغـيـرـ أـسـالـيـبـ التـفـكـيرـ الـتـيـ ظـلـتـ مـخـتـفـيـةـ وـرـاءـ تـلـكـ الـمـاـهـدـ الـظـاهـرـةـ الـمـحـسـوـسـةـ، فـسـوـفـ تـكـوـنـ مـوـضـعـ عـنـايـتـاـنـاـ مـنـ الـبـحـثـ فـيـماـ بـعـدـ، فإـنـ تـلـكـ الـأـسـالـيـبـ وـالـكـشـفـ عـنـهـاـ وـبـحـثـهـاـ هـيـ فـيـ الـوـاقـعـ الـغـرـضـ مـنـ كـتـابـيـ هـذـاـ.

إنـ الرـغـبـةـ الصـحـيـحـةـ فـيـ الـبـحـثـ عـنـ الـبـوـاعـثـ الـخـفـيـةـ الـكـامـنـةـ فـيـ عـالـمـ الـفـكـرـ، كـانـ أـكـثـرـ ظـهـورـاـ فـيـ تـلـكـ الـأـمـةـ الـتـيـ أـخـذـتـ فـيـ الـعـصـرـ الـحـدـيـثـ قـيـادـ التـفـكـيرـ الـفـلـسـفـيـ فـيـ أـورـوبـاـ، وـأـعـنـيـ بـهـاـ أـلـمـانـيـاـ، يـدـلـكـ عـلـىـ ذـلـكـ الـمـؤـلـفـاتـ الـتـارـيـخـيـةـ الـضـخـمـةـ الـتـيـ خـصـهـاـ كـبـارـ الـمـؤـلـفـينـ فـيـ أـلـمـانـيـاـ بـتـتـبـعـ درـجـاتـ الرـقـيـ وـالـنـمـاءـ الـلـذـينـ مـضـىـ فـيـهـمـاـ الـعـلـمـ الـحـدـيـثـ.ـ وـالـظـاهـرـ أـنـ الـبـحـثـ الـتـارـيـخـيـ قـدـ حلـ فـيـ أـلـمـانـيـاـ –ـ فـيـ أـواـخـرـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ –ـ مـحـلـ الإـكـبـابـ عـلـىـ التـأـمـلـ الـغـيـبـيـ –ـ الـمـيـتـافـيـزـيـ.

وـقـدـ تـقـعـ عـلـىـ شـيـءـ مـنـ الـاـنـتـقـالـ مـنـ الـأـسـلـوبـ الـمـنـطـقـيـ إـلـىـ الـأـسـلـوبـ الـتـارـيـخـيـ فـيـ مـنـتـجـاتـ الـعـقـلـ الـإـنـكـلـيـزـيـ خـلـالـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ.ـ كـانـ «ـدـافـيـدـ هـيـومـ»ـ David Humeـ قـوـامـ ذـلـكـ التـغـيـرـ؛ـ إـذـ بـدـأـ بـدـرـاسـةـ الـمـسـائـلـ الـغـيـبـيـةـ –ـ الـمـيـتـافـيـزـيـةـ –ـ الـتـيـ وـقـعـ عـلـيـهـاـ فـيـ كـتـابـاتـ «ـلـوكـ»ـ وـ«ـبـرـكـلـيـ»ـ Berkeleyـ، وـمـنـهـاـ تـرـقـيـ إـلـىـ دـرـسـ مـعـضـلـاتـ الـأـخـلـاقـ وـالـسـيـاسـةـ وـالـاقـتصـادـ، وـانتـهـىـ مـنـ ذـلـكـ بـأـنـ وـهـبـ نـفـسـهـ إـلـىـ دـرـاسـةـ الـتـارـيـخـ، وـلـمـ يـكـدـ يـخـتـنـمـ «ـهـيـومـ»ـ صـفـحـتـهـ حـتـىـ ذـاعـتـ الـمـبـاحـثـ الـتـارـيـخـيـةـ فـيـ إـنـكـلـتـرـاـ ذـيـوـعـ الـمـؤـلـفـاتـ الـغـيـبـيـةـ وـالـلـاهـوتـيـةـ فـيـ فـجرـ حـيـاتـهـ.ـ أـمـاـ الـعـوـافـلـ الـتـيـ أـدـتـ إـلـىـ الـاـنـتـقـالـ مـنـ الإـكـبـابـ عـلـىـ الـمـبـاحـثـ الـغـيـبـيـةـ إـلـىـ الـأـسـالـيـبـ الـتـارـيـخـيـةـ فـيـ أـلـمـانـيـاـ، فـمـشـابـهـةـ لـتـلـكـ الـتـيـ أـدـتـ إـلـىـ ذـلـكـ فـيـ إـنـكـلـتـرـاـ خـلـالـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ.ـ وـبـيـنـمـاـ كـانـ الـمـبـاحـثـ الـتـارـيـخـيـةـ آـخـذـةـ بـزـمـامـ الـعـقـولـ فـيـ أـلـمـانـيـاـ، بـلـ قـضـتـ الـقـضـاءـ كـلـهـ عـلـىـ «ـالـفـلـسـفـةـ الـنـظـامـيـةـ»ـ Systematic Philosophyـ؛ـ أيـ الـفـلـسـفـةـ ذاتـ الـقـوـاعـدـ المـرـسـومـةـ،ـ أـنـتـجـتـ إـنـكـلـتـرـاـ لـأـوـلـ عـهـدـهـاـ فـيـ تـارـيـخـ الـتـفـكـيرـ الـعـقـليـ مـذـهـبـاـ فـلـسـفـيـاـ؛ـ ذـلـكـ الـمـذـهـبـ الـذـيـ أـبـرـزـهـ الـعـلـامـ الـكـبـيرـ «ـهـرـبـرـتـ سـبـنـسـرـ»ـ H. Spencerـ، وـحاـوـلـ أـنـ يـثـبـتـ فـيـهـ أـنـ الـغـرـضـ مـنـ

الفلسفة «توحيد المعرفة»، على أن من الحقائق الخطيرة في تاريخ الفكر تلك الحقيقة التي سوف نصرف في سبيلها شطرًا عظيمًا من عنايتنا.

إن مبدأ «توحيد المعرفة» الذي بثه «سبنسن» في ذلك المذهب مبدأً تاريخي، وهو في قوامه عبارة عن طريقة من النماء التدرجية تُعرف الآن باسم «النشوء» Evolution. يُكونُ هذا المذهب في مجموعه فكرة متقاضة للفكرة التي بثها «هرمان لوذن» Hermann Lotze في آخر مذهب فلسفى من المذاهب العظمى التي ظهرت في ألمانيا، فكل المذاهب النشوئية إذ تقضي بأن وحدة الأشياء تاريخية صرفة، وأن هذه الوحدة يجب أن يعود الإنسان في بحثها إلى أصلٍ أولٍ عنه نشأت، إذا بك تجد أن «لوذن» قد حاول أن يثبت أن الحقيقة تنحصر في الاعتقاد بأن لوحدة الأشياء وجود ثابت، وأنها مبدأ موجود في كل الأشياء المفردة، وليس — كما يقول النشوء — عبارة عن حلقة تربط بين الموجودات بمقتضى الزمان والمكان.

كان الغرض من مذهب «لوذن» الوصول إلى جواب إذا تساءلت: كيف يستحضر العقل الإنساني لنفسه وحدة كائنة حية كوحدة الموجودات؟ ومن طريق أية من الفكريات التي يتبناها الفكر الإنساني نستطيع أن نصل إلى تلك الوحدة؟ وبأية من الكلمات التي تتضمنها اللغات الإنسانية يمكننا أن نعبر عنها؟

إن كلاً من مذهب «سبنسن» في النشوء، ومذهب «لوذن» في «العالم الأصغر» Microcosmus، ويعنى به الإنسان، يرمي إلى إثبات «وحدة الفكر»، وإحداث ذلك التصور الذي يسوق إلى الاعتقاد بأن الأشياء تحتفظ ببنائها، وأن الحوادث الكونية تقع خصوصًا لعلاقة واقعة بينها يمكن إدراكها، ولكنك تلفى أن «سبنسن» إذ يمضي مقتنعاً بأن الوحدة الكائنة وراء عالم الظواهر لا يمكن معرفتها، وينصرف إلى دراسة الطريقة التي تحدث بها ظواهرات الكون، وتنشأ بها الموجودات، والإفصاح عن حقائقها، تجد أن «لوذن» يعتبر أن ذلك القسم، الذي صرف إليه «سبنسن» كل همه، ليس من مجموع الفلسفة إلا مقدمة وتمهيداً يسلم إلى حل «المعضلة الحقيقية».

يرى «لوذن» أن أية طريقة من طرائق النشوء والنماء ليست سوى الثوب الظاهري التي تلبس المادـةـ الحـقـيقـيـةـ؛ أيـ عـبـارـةـ عـنـ أـسـلـوبـ مـيكـانـيـكـيـ «ـآـلـيـ»ـ يـنـتـجـ بـهـ شـيءـ آخرـ أـثـمـنـ قيمةـ،ـ وأـبـعدـ خـطـرـاـ.

ويعتقد «لوذن» في تأثير تلك الآلية — الميكانيكية — تأثيراً عاماً شاملًا، غير أنه يُحتم في الوقت ذاته ضرورة العثور على المادة ذاتها، والحصول على فكرة في الغاية أو الحد

الذي يمكن أن يبلغ إليه الإنسان من هذه النظمات المتتابعة المتواصلة، أو تلك الوسائل الآلية المنظومة التسلسل، كما أنه يحضر على العثور على النتيجة التي قد يتضمنها البلوغ إليها.

ويقول «لودز»: إننا إذا عرفنا الوسيلة الآلية التي يتم بتأثيرها غرض من الأغراض، أو فعل من الأفعال، استطعنا أن نقدر الظاهرات الطبيعية ونزنها رياضيًّا، غير أننا لكي نستوعبها ونتفهم طبيعتها، نحتاج إلى ضروبٍ آخر من المعرفة تتصحر إلى تقدير قيمة الفعل أو الغرض الذي تنتهي إليه، والنتيجة التي نجنيها من تقديرنا للظاهرات. يقصد بذلك «لودز» أن مقدرتنا على تتبع الحالات الميكانيكية التي تُبني عليها دقة سير الساعة شيءٌ، وأن تحديد الوقت الذي تعنيه لنا وضبطه شيءٌ آخر، على أن حب الاستطلاع قد يقود طفلاً إلى الإنناس بالشيء الأول، في حين أن الشيء الآخر يتوقف على تقديرنا لحاجات الحياة وأغراضها، وعلى عظم ما تحمل من مسؤوليات الواجب.

عندما شرع «لودزن» في كتابة مؤلفه «العالم الأصغر» Microcosmus نبئ الأذهان إلى كتابين آخرين يُمْتَزِّنُ موضوعهما لموضوعه باصرة ونسب. عمد الكتابان كلاهما، على اختلافِ النهج والطريقة، إلى إيجاد فكرةٍ تامةٍ يدركها العقل عن عالمٍ عظيمٍ من الظاهرات المبدهة، يُسلِّم لك إذا ما نظرت فيه إلى عالمٍ من الحقائق. أما الكتاب الأول فمن نواتج القرن الثامن عشر قصر البحث فيه على التاريخ، وعلى نواة الترابط الكائن بين أوجه التشوّه الإنساني:

لقد أعطى «هردر» Herder، إن لم يكن قد ابتكر، نوعاً من الخطورة والشأن خص به اصطلاح «الإنسانية» Humanity، قصد به وحدة تربط بين كل الحاجات الإنسانية، سواءً أفي نشوئها الاجتماعي أم التارخي، وتلك فكرةٌ مضت مستبدة بنواثج العقل الألماني منذ عصر «ليبنتز» Leibnitz، وأما الكتاب الثاني فكان مؤلفه «إسكندر فون همبولد» A. von-Humboldt، الذي لم تغادره فكرة الوحدة الحاكمة في كل الموجودات خلال كل أدوار حياته التي ملئت بمختلف صور الجهد، فأنفقها حيناً مكيناً على درس الطبيعة درساً عميقاً، وحينما آخر مستغرقاً في تقييم النتائج التي تترتب على أساليب البحث العلمي الحديثة، وحاز في كلتا الناحيتين مكانةً و شأنًا. ولقد استعان «فون همبولد» بمثانة من الأسلوب وسلامة من التعبير، امتنزج فيما الشاعر بالعلم؛ ليخرج من قلمه في صورة كتاب <sup>الفه</sup> في أصيل حياته، كشف به لأنظار قارئيه ودارسيه عن صورةٍ من صور الطبيعة العظمى، كما تخيلها عقله الكبير من قمم العلم المشرفة على اللانهاية، وكما رأتها عيناه من متفعات «شميمه، آزو». .

في وسط تلك الصورة التي صُورَتْ بها الطبيعة، وفي جوف التغيرات التي تنتاب الكون، أين يوجد «الكون الأصغر» Microcosmus؟ طرأ هذا السؤال بالضرورة على عقل «لودز»، فهو لذلك يقول: ليس هو ذلك الكون الأعظم الذي نريد أن نصفه مرة أخرى على النموذج الذي عرفناه من قبل في ألمانيا؛ فإن صور هذه الدنيا العظيمة إذ تنزل إلى أعماق سقيقة من الإدراك العام، فهي لذلك ترجعنا إلى نفوسنا تارة أخرى لتناول التساؤل: أية قيمة لحياة الإنسان والإنسانية، بما فيها من الخصائص الخالدة، وبما في تاريخهما من أوجه التغيير وسط هذه الطبيعة في مجموعها؟ على أن «لودز» بعد أن جمع كل ما يمكن أن يكون جواباً لهذا السؤال، عاد إلى الاعتراف بأنه لم يصل إلى شيء إلا إلى تجديد الفكرة التي بدأها «هردر» في كتابه «فلسفة التاريخ»، على أن كلاً من كتاب «هردر» وكتاب «لودز» لتابع لذلك العصر الذي أثرت فيه الفلسفة والشعر على العلم والتاريخ أبين الأثر. وقد يظن الكثيرون أنه من المستحيل، أو على الأقل من المتعذر بحكم الزمان، أن يجمع الإنسان بين منتجات العلم والتاريخ الحديث؛ ليخرج منها بذلك الغرض الذي ندب إليه الفلسفة وامتدحه الشعراء، أو أن يدلّ بقدمه في مجاهل ذلك التيه الذي تمثله الظاهرات الطبيعية المحسوسة والحوادث الكونية؛ ليصل إلى ما يختفي وراءها من الوحدة والعظمة؛ ذلك لأنهم بينما يسلمون بوجود قوة شاملة تامة تختفي وراء عالم الظواهر تسليماً مطلقاً، إذا بهم يُقصونها كما فعل «سبنسر» إلى العالم «المجهول».

لا أراني في هذا الموطن محتاجاً لأن أمضي في نقد تلك الاعتبارات التي ساقتهم إلى وجهة من النظر بالغة أقصى حد من الاعتدال والإذعان للغيب؛ ولهذا أريد أن أقصر بحثي فيهم على طريقة محدودة، وقد أكون غير مسبوق بها، تتناول النظر في صحة معتقدهم الذي يلقي في روعهم أن استيعاب الظاهرات وحداثات الكون استيعاباً صحيحاً، لن يأتي إلا من طريق النظر فيها من جهة تواصل أسبابها، ومن طريق نتائجها الكلية.

إذا كان ثمة في عالم الطبيعة والحياة العقلية من شيء يحق لنا أن نسلم بأن فيه وحدة، وأنه مجهول غير مرئي، فهو بلا ريبة الفكر الإنساني: بما فيه من شعب ومفائز، وبما له من منتجات ومظاهر، فإن محاولة يراد بها تتبع أصله الذي عنه نشا في متروكات المدنيات التي قامت خلال العصور الأولى، أو محاولة يقصد بها صده عن الغاية التي يسير نحوها درجة بعد درجة، كلتاها محاولة باللغة أقصى حدود الاستعصاء، وغاية ما نستطيع أن نقول: إننا أكثر علماء، وأعمق معرفة بعصرنا الذي نعيش فيه، وبمختلف صور الأدب وضرور الإنتاج العقلي التي شهدنا نشوءها خلاله، فقد استطاع الفلاكيون

أن يصلوا إلى معرفة مقدار أكثر المدارات اتساعاً، وأبعدها مسافة، بجزء ضئيل من مدارٍ سيارٍ وقع تحت حسمه وتناولوه بالدرس والاستقصاء.

وأقرب مثال على ذلك استكشاف «بيازى» Piazzi لسيار «سيريز» Ceres في «باليرمو» في أول ليلة من عام ١٨٠١، كذلك تجد أن «تشريح المقارنة» Comparative Anatomy قد علمنا كيف نستطيع أن نقف من بضعة بقايا مستحمرة على تركيب كائن عضوي، وعلى مفصلات تكوينه برمتها، على أن غايتها من ضرب هذه الأمثل، أن أطبق قاعدتها الأولى على جزء صغير من نواحي الارتفاع العقلي، هُيئَ لي أن أكون على علم بها، وشعرت بما كان لها من أثر في نفسي؛ فإن تتبعنا، على وجه من الدقة والضبط، ذلك الشطر الصغير من الفكر الأوروبي، قد يكون باباً ينفتح منه إلى حيث تستكشف صوراً أبعد دقة، وأكثر صحة، في حين أن هذه تصبح وسائل نتذرها سبيلاً للحصول على فكراتٍ أثمن من سبقتها قيمة، وأتم نفعاً، وأشد ضبطاً، في الكشف عن خفيات الحدود القصبة المشبعة الخاصة بالحياة العقلية النوع الإنساني.

لا تنحصر هذه الحياة في استجمام ضروب المعرفة التي استجمعت خلال القرن التاسع عشر، ولا في نتائج البحث العلمي التي تضمها جدران المكاتب والمتاحف العامة، ولا في مدارس التقين الأولى، ولا معاهد العلم العليا، ولا في الإصلاحات الاجتماعية، ولا ترقية أساليب التربية. وهي أقل ما تكون ظهوراً في النظمات السياسية والاقتصادية. إن هذه جماعها إلا أشياء خارجية يمكن أن توصف أو تصور، شأنها في ذلك كشأن ظاهرات الطبيعة المحسوسة.

أما حياة النوع الإنساني العقلية، فمحصورةٌ في أساليب التأمل الخفية التي أمكن بها استيعاب تلك الأشياء الظاهرة، والتي استطاع بها الإنسان أن يضيف إلى مبدعات الطبيعة خلقاً جديداً خاصاً به، وبها تستنى له أن يُغيّر من وجه الأرض، ويُبدل من نظامها، وأن يخص كائنات الطبيعة بمعانٍ مثالية لا تُتاح لغيره. وفي سبيل هذه الغاية يعنت إنسان نفسه لكي يستكشف أساليب لا يليث أن يطبقها حتى يعمد إلى تغييرها، وفي سبيلها يحدس وراء نتائج وأغراض سرعان ما يرفضها ويقصيها، ومن أجلها يخترع نظرياتٍ قصيرة العمر وشيخة البقاء. وفي الواقع، يبني ويهدم، يُشيد ويُقوض؛ ليستعين بالبناء والهدم، وبالتشييد والتقويض، على إبراز مختلف نظم الاجتماع، وصور الفن، ومنتجات العلم.

وتلك النظم والصور والمنتجات يخلفها الإنسان لا كشيءٍ إلا كآثار تدل على ما بذل من جهد، وما أنفق من نشاط، والأنقضاض التي يخلفها وراءه لا تثبت أن تُترك وتُهمل.

لـأـشـيـاءـ لـأـقـيمـةـ لـهـاـ،ـ إـلـاـ قـيـمـةـ مـحـدـودـةـ بـالـزـمـانـ،ـ مـقـرـونـةـ بـصـفـةـ الـإـنـتـقـالـ وـالـتـغـيـرـ،ـ بـيـدـ أـنـ هـذـهـ الـأـنـقـاضـ لـيـسـ إـلـاـ جـسـراـ يـصـلـ بـيـنـ الـمـاـخـيـ وـالـمـسـتـقـبـلـ،ـ وـهـيـ بـذـاتـهـ الـمـادـةـ الـتـيـ يـتـكـونـ مـنـهـاـ هـيـكـلـ الـحـيـاةـ الـعـقـلـيـةـ،ـ الـتـيـ نـصـرـ فـيـ سـبـيلـهـاـ عـنـيـةـ الـبـحـثـ وـالـإـسـتـقـصـاءـ،ـ وـبـقـدـرـ ماـ يـكـونـ لـنـاـ مـنـ حـظـ فيـ بـنـاءـ ذـلـكـ الـجـسـرـ،ـ أـيـ فيـ تـقـوـيـضـ الـقـائـمـ وـالـإـشـادـةـ عـلـىـ أـنـقـاضـهـ،ـ وـبـقـدـرـ ماـ يـكـونـ لـنـاـ مـنـ عـلـمـ بـالـوـسـائـلـ الـتـيـ عـمـدـ إـلـيـهـ الـفـكـرـ لـبـلـوغـ هـذـهـ الـغاـيـةـ،ـ وـبـقـدـرـ ماـ رـأـيـنـاـ وـعـلـمـنـاـ مـنـ أـوـجـهـ نـشـوـءـ الـعـظـائـمـ مـنـ الـبـدـايـاتـ وـالـصـغـائـرـ،ـ يـكـونـ مـقـدـارـ عـلـمـنـاـ بـشـيءـ مـنـ الـحـيـاةـ الـعـقـلـيـةـ الـتـيـ تـظـلـ مـخـتـفـيـةـ،ـ وـتـنـضـيـ مـسـتـورـةـ وـرـاءـ هـذـهـ الـظـواـهـرـ الـمـشـاهـدـةـ.

لـهـذـاـ أـعـتـقـدـ أـنـ درـاسـةـ مـاـ وـقـعـ تـحـ حـسـنـاـ وـمـشـاهـدـاتـنـاـ هـيـ الـطـرـيقـ الـوـحـيدـةـ الـتـيـ تـمـهـدـ لـنـاـ أـنـ نـبـلـغـ بـنـظـرـةـ عـمـيـقـةـ فـيـمـاـ أـبـدـعـ الـعـقـلـ مـنـ مـنـتجـاتـ؛ـ أـيـ فـيـ حـيـاةـ الـبـشـرـ الـرـوـحـيـةـ،ـ وـسـوـفـ نـرـىـ عـمـاـ قـرـيـبـ كـيـفـ أـنـ كـلـ عـصـرـ،ـ سـوـاءـ أـمـنـ عـصـورـ الـعـلـمـ أـمـ مـنـ عـصـورـ الـفـلـاسـفـةـ،ـ لـاـ يـبـدـأـ إـلـاـ بـفـرـوـضـ وـخـيـالـاتـ،ـ وـلـاـ يـمـضـيـ فـيـ الـبـقاءـ إـلـاـ جـرـيـاـ عـلـىـ أـسـالـيـبـ مـعـيـنـةـ،ـ وـكـيـفـ أـنـ بـعـضـ الـأـسـالـيـبـ الـفـكـرـيـةـ الـخـاصـةـ قـدـ تـصـبـحـ عـامـةـ مـأـخـوـدـاـ بـهـاـ،ـ وـكـيـفـ أـنـ وـجهـاتـ مـنـ النـظـرـ الـفـرـديـ قدـ يـتـقـبـلـهاـ الـفـكـرـ فـتـنـتـشـرـ وـتـذـيـعـ،ـ غـيرـ أـنـنـاـ تـلـفـيـ عـادـةـ أـنـ تـكـ الـفـروـضـ الـنـظـرـيـةـ لـاـ يـمـضـيـ عـلـيـهـاـ جـيـلـ أـوـ جـيـلـ،ـ عـلـىـ الـأـكـثـرـ،ـ حـتـىـ تـأـخـدـ الـعـقـولـ فـيـ وـزـنـهـاـ وـتـقـيـيـمـهـاـ،ـ وـالـفـحـصـ عـنـ نـصـيبـهـاـ فـيـ الصـحـةـ وـمـطـابـقـةـ الـوـاقـعـ.

وـنـجـدـ أـنـ نـصـيبـ الـأـسـالـيـبـ الـفـكـرـيـةـ مـنـ النـقـدـ لـاـ يـقـلـ عـنـ نـصـيبـ الـنـظـرـيـاتـ مـنـهـ،ـ فـيـطـرـأـ عـلـىـ عـالـمـ الـفـكـرـ عـقـيـبـ ذـلـكـ أـسـالـيـبـ حـدـيـثـةـ تـمـلـكـ زـمـامـهـ،ـ وـتـكـتـسـحـ أـمـامـهـ طـرـقـ الـتـفـكـيرـ الـعـتـيقـةـ،ـ الـتـيـ خـيـلـ لـلـعـقـولـ زـمـانـاـ أـنـهـاـ أـكـثـرـ الـأـشـيـاءـ مـلـاءـمـةـ لـلـطـبـيعـةـ،ـ وـأـبـعـدـهـاـ اـنـطـبـاقـاـ عـلـىـ مـطـالـبـ الـحـيـاةـ.ـ هـنـالـكـ تـجـدـ أـنـ نـظـامـ الـجـمـعـيـةـ الـإـنـسـانـيـةـ،ـ وـهـيـكـلـ الـعـلـمـ،ـ وـصـورـ الـعـرـفـةـ،ـ وـطـرـقـ تـطـبـيقـ الـفـنـونـ عـلـىـ الـضـرـورـاتـ الـبـشـرـيـةـ قـدـ اـنـتـابـهـاـ التـغـيرـ خـضـوـعـاـ لـمـبـادـئـ مـسـتـحـدـثـةـ تـكـفـلـ حاجـاتـ النـوـعـ بـمـقـتضـيـ الـارـتـقاءـ وـالـنـشـوـءـ.

وـلـاـ رـيـبـةـ فـيـ أـنـهـ لـاـ يـقـوـيـ عـلـىـ الـبـقاءـ مـنـ الـمـبـدـعـاتـ الـقـدـيمـةـ إـلـاـ النـزـرـ الـيـسـيرـ،ـ فـتـجـدـ أـنـهـ لـاـ بـيـقـىـ مـنـ تـلـكـ الـأـشـيـاءـ الـتـيـ نـدـعـوـهـاـ قـوـانـينـ الـعـلـمـ،ـ إـلـاـ قـانـونـ وـاحـدـ أـوـ اـثـنـينـ،ـ وـلـاـ يـعـودـ إـلـىـ الـلـهـ الـطـبـاعـةـ إـلـاـ بـضـعـةـ كـتـبـ لـيـعادـ نـشـرـهـاـ،ـ وـلـاـ يـبـقـىـ إـلـاـ عـدـ ضـئـيلـ مـنـ نـوـاجـحـ الـفـنـ،ـ مـعـ قـصـيـدةـ أـوـ اـثـنـينـ مـنـ قـصـائـدـ الـشـعـرـ،ـ مـثـلـ هـذـاـ سـوـفـ يـخـلـفـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ،ـ كـمـيـرـاثـاـ الـحـيـ الذيـ جـنـيـناـهـ مـنـ سـنـيـهـ الـأـوـلـيـ،ـ فـيـ حـيـنـ أـنـ بـقـيـةـ الـمـنـتجـاتـ سـوـفـ تـضـمـ إـلـىـ مـجـمـوعـةـ مـاـ يـدـونـهـ التـارـيخـ مـنـ وـقـائـعـ الـعـصـرـ،ـ وـلـنـ يـصـبـحـ لـهـاـ فـيـ الـحـيـاةـ مـنـ خـطـرـ أـكـثـرـ مـنـ خـطـرـ الذـكـرـيـ؛ـ إـذـ تـمـسـكـ عـنـ أـنـ تـرـسـمـ لـنـاـ طـرـيـقاـ قـيـمـاـ،ـ أـوـ تـنـيرـ لـنـاـ سـبـيلـ الـحـيـاةـ فـيـ عـهـدـهـاـ الـجـدـيدـ.

ولن تمضي بضعة قرون على تلك المنتجات، إلا لينظر إليها أعقابنا كما ننظر نحن إلى آثار المدنيات الشرقية القديمة، كما ننظر إلى أبي الهول القابع في الصحراء التي تكتنف أهرامات مصر، متأملين في تلك الوسائل التي تم تشييدها، وفي مقدار ما أنفق في سبيلها من جهود ومشقات، وفي الفكرة التي قامت في رءوس الذين وضعوا تصميمها وأقاموها حيث هي عنواناً على العصور، ومثلاً للدهور.

٣

إن أكبر مزايا الفن أنه يقيم في ذهن الإنسان بنظرٍ واحدةٍ صورةً كاملةً عن الغرض الذي يرمي إليه، وبذلك يُحدث تأثيراً تاماً في العقل دفعة واحدة، على أن التأمل العميق إن كشف لنا عن الكيفية التي يتتألف بها الكل بالتئام مجموع أجزاءه، وعرفنا كيف يعبر كل عنصر من العناصر المؤلفة للمجموع عن الفكرة الأصلية التي توحد بين الأجزاء؛ فإن الأثر الذي يتركه المجموع يظل السبيل الأوحد الذي نستطيع أن نفهم به كل جزء من الأجزاء قائماً بمفرده.

ولقد نكر على الأدب، وعلى العلم، وعلى التاريخ، أن في مستطاع كل منها أن يصور الغرض الذي يرمي إليه في مجموعه، بحيث يُحدث في ذهن الباحث منذ البدء تصوراً تاماً؛ أو يزوده بفكرة كاملة الأجزاء، على أننا نمتُّ إلى الباحث أن يُماشينا متبعاً خطواتنا إلى القمة العليا التي لا بد من أن نبلغ إليها بتصعيدهنا في ذلك المرتقى الوعر. إن كثيراً من الطرق تسلّم إلى تلك القمة، على أننا غالباً ما نخطئ في اختيار السبيل المثلث والصراط المستقيم، وقد تبلغ بالقارئ حد الإنهاك والكلال قبل أن نقطع نصف الطريق، وربما نُحدث في نفسه إحساسات قد تصدّه عن التأمل في مجموع ما يتراكم تحت قدميه من الماناظر وهو في مرتفاه. أما ما ندرك نحن في معنى «المجموع»، فليس إلا جملةً ما تكونه أجزاءه، في حين أن الفنان لا يدرك المجموع إلا بفكرة أن الأجزاء ليست إلا كسوراً يتكون منها كل مؤلف النواحي.

طالما اعترض سببلي كثير من أمثال هذه الصعاب وأنا مكب على التدبر في أمر الفكر خلال القرن التاسع عشر، على الرغم مما حَوَّطْتُ به بحثي من الحدود؛ وما ألمت نفسي من العكوف على دائرة من البحث لا أَعْدُوهَا.

لقد اعتقادت اعتقاداً تاماً بعدما بلوت من البحث والتجاريب، أن عالم الفكر أشبه بدائرة يحدها محيط يتراكم في اتساعه تراكمي الالانهائية، ولشدّ ما عانيت من تعب ومشاق

حتى وقعت على نقطة أبداً منها السير، وأختط منها طريقاً يقودني إلى تلك القمة، على أمل أن أشرف منها على منظر للمجموع يمكنني من اكتناهه، والوقوف على ماهيته.

خُصّتْ بعْضُ عصور التاريخ بقيام حركات فاصلة، وحوادث عظيمة امتصت كل القوى العاملة النشيطة، واندمجت فيها كل العناصر العقلية والتخيالية، فتجد أن تلك الحركات قد مضت مستبدة بأمرها، إما لتخضع كل القوى المتبعة في عصر ما للعمل في سبيل إبراز غرض معين، أو تثبت فكرة بذاتها، وإما أن تلغيها وقد جرفت أمامها كل شيء إلى جوٌ من التنازع والجلاد، يوجه بكل ما فيه من مختلف الصور والقوى إلى تزكية الحادث الرئيسي الذي تلتـفـ منـ حولـهـ قـوـةـ الفـكـرـ وـالـعـنـاـصـرـ.

والأمثال التي يرويها التاريخ كثيرة: منها تلك القرون الطويلة التي يقص أخبارها تاريخ اليهودية، والعصور الأولى التي أينعت فيها الكنيسة النصرانية، والزمان الذي تقشعـتـ فـيـهـ عـنـ المـدـنـيـةـ سـلـطـةـ الـبـابـوـاتـ،ـ وـزـمـانـ الإـلـصـاـحـ البرـوتـسـتـانتـيـ،ـ وـعـهـدـ الثـوـرـةـ الفـرـنسـوـيـةـ.

فإذا عدنا إلى دراسة «الفكر» في مثل هذه العصور، لما أعزـناـ الـبـحـثـ عنـ مـرـتكـزـ نـرـتكـزـ عليهـ،ـ أوـ نـقـطـةـ نـبـداـ منـهاـ؛ـ لأنـ منـ الـهـيـنـ أنـ نـعـثـرـ عـلـىـ سـيـارـهـاـ الذـرـيرـيـ<sup>8</sup>ـ،ـ Vortex-Atomـ،ـ الذيـ يـحـرـكـ بـحـرـكـتـهـ كـلـ الـقـوـىـ الـكـائـنـةـ،ـ وـيـبـعـثـ الـعـبـقـرـيـةـ فـيـ مـكـمـنـهـاـ،ـ وـيـوـقـظـ الـكـفـاءـاتـ وـالـمـوـاـهـبـ الـعـقـلـيـةـ مـنـ رـقـدـتـهـ؛ـ فـفـيـ عـصـرـ كـعـصـرـ الإـلـصـاـحـ البرـوتـسـتـانتـيـ مـثـلـاـ،ـ يـمـكـنـنـاـ أـنـ نـتـكـلـمـ فـيـ السـيـاسـاتـ الـخـاصـةـ بـهـ،ـ وـصـورـ الـدـيـنـ الـتـيـ أـنـبـتـهـ،ـ وـالـفـلـسـفـةـ وـالـأـدـبـ وـالـفـنـ،ـ وـكـلـ الـمـنـجـاتـ الـعـقـلـيـةـ الـتـيـ أـنـتـجـتـهـ،ـ وـأـنـ نـمـضـيـ فـيـ بـحـثـنـاـ مـوـقـنـيـنـ بـأـنـنـاـ لـاـ بـدـ مـنـ أـنـ نـقـعـ عـلـىـ كـلـ وـجـهـ مـنـ وـجـوهـ التـقـدـمـ الـعـامـ،ـ وـعـلـىـ كـلـ الـخـطـىـ الـارـتـقـائـيـ الـتـيـ خـطاـهـاـ الـعـصـرـ،ـ وـأـنـ نـقـفـ عـلـىـ كـلـ الـفـكـرـاتـ الـتـيـ ذـاعـتـ فـيـهـ،ـ سـوـاءـ أـرـضـتـ مـعـقـدـنـاـ أـمـ نـاقـضـتـهـ.ـ وـإـنـهـ لـمـ الـظـاهـرـ الـجـلـيـ أـنـ الـعـصـرـ الـذـيـ أـورـخـ فـيـهـ لـاـ يـتـضـمـنـ حـادـثـاـ مـنـ تـلـكـ الـحـوـادـثـ الـتـيـ تـمـتـصـ الـقـوـىـ،ـ وـتـبـسـطـ سـلـطـانـهـاـ الـمـلـطـقـ عـلـىـ عـالـمـ الـفـكـرـ.

على أنه إن كان في القرن التاسع عشر من قوة وحدة بين المؤثرات التي انبثـتـ فيهـ،ـ فإنـهاـ لـمـ تـظـهـرـ طـافـيـةـ عـلـىـ وـجـهـ الـحـيـاةـ،ـ بلـ ظـلـتـ دـفـيـةـ فـيـ أـعـماـقـ الـطـبـيـعـةـ الـبـشـرـيـةـ،ـ

<sup>8</sup> السيار الذريري في الطبيعيات هو الجوهر الفرد الساـبـقـ فيـ الأـثـيـرـ.ـ ويـقـصـدـ بـذـلـكـ الـمـؤـلـفـ أـنـ الـحـوـادـثـ الـعـظـيـمـيـ فـيـ الـفـكـرـ أـشـبـهـ الـأـشـيـاءـ بـالـسـيـارـ الذـرـيرـيـ الـذـيـ يـهـزـ بـحـرـكـتـهـ كـلـ الـقـوـىـ الـمـتـصـلـةـ بـهـ.ـ مـعـربـ.ـ

والمعضلة التي أخذنا على عاتقنا أن نبلغ إلى حلها، والغرض الذي قضينا مجاهدين في سبيل الوصول إليه لن يظهر سافراً غير مقنع؛ إذن نعتقد أنه غرض يمكن أن يدرك من طريق الاستنتاج وحده، فلا نستطيع له تحديداً ولا حصرًا؛ لهذا نونق بأن الغرض الذي من أجله عشنا وشققينا وجاهتنا لم يظهر لشاعرنا تاماً بيّناً، كما ظهر للذين عاشوا خلال عصر الإصلاح البروتستانتي، أو عصر الثورة الفرنسية، وإلا لما سُقنا بأنفسنا، لولا هذا الأمر، إلى فلسفة «اللاشعاعية» و«المجهول»، ولما انتهى القرن التاسع عشر مختتماً بالتساؤل: «أمن قيمة لهذه الحياة؟»

وأنت تعثر من جهة أخرى، إذا ما قلبت صفحات التاريخ، على عصورٍ سادت فيها روح الهدوء، فانصرف فيها الناس إلى متابعة بعضهم بعضاً في السير في سبيل بعيتها، واطمأنوا إلى ميل عامّة أحدهنّها فكرات واحدة، وأخلدوا إلى الأخذ بعاداتٍ خاصةٍ في التفكير، وانتحوا في البحث أساليبٍ فيها من الفطرة الأولى أثرٌ السذاجة، وتطرّيات البساطة والاعتدال، وعمدوا إلى تطبيق بضعة سنن لم يعودوا إلى غيرها، فظلوا عليها عاكفين، ومضوا بها قانعين.

كان هذا طابع الزمان الذي تقدم الثورة الفرنسية، أي الشطر الأعظم من القرن الثامن عشر، حتى لقد أصبح من الهين علينا أن نصف طابع ذلك القرن، فصرفنا عليه اسم القرن الفلسفـيـ؛ قـرنـ التـنوـيرـ العـقـليـ Aufklarung<sup>٩</sup> وإن شئت فقل «قرن فولتير»، ذلك في حين أنت لا نستطيع أن نصرف على عصرنا اسمًا مشابهًا لهذا الاسم، ولا أن نخصه بنعت كهذا النعت؛ فإنك لن تقع فيه على «اسم علم» يحمل معه شهادة بالأثر الذي ترك صاحبه مطبوعًا في جبين كل ما احتك به من حاجات الحياة العديدة التي وقعت تحت سلطانه.

لقد أدعى بعض الباحثين أنَّ تاريخ الفكر هو بذاته تاريخ الفلسفة، على اعتبار أنَّ مذاهب الفلسفة ونظرياتها المختلفة تتضمن في مجلملها الإبانة عن السبيل التي تمشت فيها الفكريات خلال عصـرـ ما من العصور، وعلى ذلك يكون الكلام في تاريخ الفكر في القرن التاسع عشر هو بذاته الكلام في تاريخ الفلسفة خالله.

<sup>٩</sup> هذا المصطلح في الألمانية يقابلـهـ فيـ الإنـكـلـيـزـةـ enlightenment بـمعـنىـ تـنـوـيرـ — حـلـقةـ التـنـوـيرـ الـفـلـسـفـيـةـ فيـ القـرـنـ الثـامـنـ عـشـرـ «ـالـحرـرـ».

لقد أنتـجـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ كـثـيرـاـ مـنـ صـورـ الـفـلـسـفـةـ وـمـذـاهـبـهاـ الـمـخـلـفةـ،ـ غـيرـ أـنـكـ تـجـدـ أـنـ تـلـكـ المـذاـهـبـ،ـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ اـخـلـافـهـ وـتـبـاـيـنـهـاـ،ـ مـنـ مـثـالـيـةـ «ـفـيـخـتـهـ»ـ الـمـطـرـفـةـ،ـ إـلـىـ مـادـيـةـ «ـبـخـنـ»ـ الـأـحـادـيـةـ Buchnerـ،ـ لـنـ تـجـعـلـنـاـ نـشـعـرـ بـأـنـهـاـ مـحـيـطـةـ بـعـالـمـ الـفـكـرـ كـلـ الـإـحـاطـةـ.ـ إـنـ أـكـبـرـ دـلـيلـ عـلـىـ هـذـاـ أـنـ الـعـصـرـ الـذـيـ أـجـدـبـ فـيـهـ الـعـقـلـ الإـنـكـلـيـزـيـ مـنـ الـفـلـسـفـةــ،ـ وـهـوـ أـرـبـعـةـ الـعـقـودـ الـأـوـلـىـ مـنـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرــ،ـ قـدـ أـخـصـبـ هـنـالـكـ فـيـ إـنـتـاجـ نـزـعـةــ،ـ أـدـبـيـةـ حـدـيـثـةـ،ـ وـفـيـ إـبـرـازـ تـصـوـرـ خـاصـّـ فـيـ الـفـنـ،ـ وـفـتـحـ فـيـ كـلـ الـاتـجـاهـيـنـ:ـ اـتـجـاهـ الـأـدـبـ وـاتـجـاهـ الـفـنـ،ـ يـنـبـوـعـاـ فـائـضـاـ بـمـنـتجـاتـ الـحـيـاةـ الـعـقـلـيـةـ،ـ فـيـ حـينـ أـنـكـ لـنـ تـقـعـ فـيـ الـمـذـاهـبـ الـفـلـسـفـيـةـ عـلـىـ أـثـرـ تـنـاـولـهـاـ بـالـوـصـفـ وـالـتـقـدـيرـ.

كـذـلـكـ تـجـدـ أـنـ فـرـنـسـاـ قـدـ أـجـدـيـتـ فـيـ «ـالـتـأـمـلـ الـفـلـسـفـيـ»ـ خـلـالـ عـصـرـ «ـالـعـوـدـةـ إـلـىـ الـمـلـكـيـةـ»ـ،ـ غـيرـ أـنـهـاـ أـحـدـثـ إـذـ ذـاكـ عـصـرـاـ ذـهـبـيـاـ مـنـ عـصـورـ الـأـدـبـ،ـ وـأـمـدـتـ كـلـ أـورـوـبـاـ بـأـضـواءـ الـعـلـمـ الـتـيـ أـشـعـتـ مـنـ «ـبـارـيسـ»ـ خـلـالـ الثـلـاثـ الـأـوـلـ مـنـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرــ،ـ وـقـلـمـاـ عـنـيـ تـارـيخـ الـفـلـسـفـةـ بـذـكـرـ «ـجـوـتـهـ»ـ،ـ وـمـعـ هـذـاـ فـإـنـ مـؤـلـفـاتـهـ تـتـضـمـنـ عـلـىـ الـأـرـجـحـ أـعـقـمـ صـورـ الـفـكـرـ الـتـيـ أـنـبـتـهـاـ الـعـصـورـ الـحـدـيـثـةـ،ـ ثـمـ عـدـ إـلـىـ فـرـنـسـاـ ثـانـيـةـ تـجـدـ أـنـ الـمـذـهـبـ الـفـلـسـفـيـ الـوـحـيدـ الـذـيـ أـبـرـزـهـ الـعـقـلـ الـفـرـنـسـوـيـ طـوـالـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرــ،ـ هـوـ مـذـهـبـ «ـكـونـتـ»ـ فـيـ «ـالـفـلـسـفـةـ الـيـقـيـنـيـةـ»ـ،ـ غـيرـ أـنـهـ لـمـ يـتـرـكـ إـلـاـ أـثـرـاـ ضـئـيلـاـ فـيـهـاـ.

وـمـنـ ذـاـ الـذـيـ يـجـرـؤـ عـلـىـ القـوـلـ بـأـنـ هـذـاـ الـمـذـهـبـ يـعـكـسـ عـلـىـ الـعـالـمـ مـنـ صـورـ الـفـكـرـ الـفـرـنـسـوـيـ مـاـ يـعـكـسـ عـصـرـ «ـفـوـلـتـيرـ»ـ،ـ أـوـ عـصـرـ «ـمـونـتـسـيكـوـ»ـ مـثـلـاـ؟ـ وـإـلـيـكـ «ـهـيـجـلـ»ـ نـفـسـهـ،ـ فـإـنـهـ لـذـلـكـ الـبـاحـثـ الـذـيـ عـدـ إـلـىـ تـبـعـ آـثـارـ الـعـقـلـ الـإـنـسـانـيـ فـيـ مـذـاهـبـ الـفـلـسـفـةـ،ـ عـلـىـ أـنـهـ قـدـ جـهـرـ بـعـدـ الـجـهـدـ وـالـعـنـاءـ بـأـنـ الـفـلـسـفـةـ آـخـرـ ثـمـارـ الـمـدـنـيـةـ،ـ وـأـنـ أـيـةـ فـكـرـةـ مـنـ الـفـكـراتـ الـتـيـ تـمـضـيـ مـتـحـكـمـةـ فـيـ الـعـقـولـ خـلـالـ أـيـ عـصـرـ مـنـ الـعـصـورـ لـاـ تـظـهـرـ لـابـسـةـ الـثـوـبـ الـمـذـهـبـيـ،ـ إـلـاـ وـكـانـ هـذـاـ عـنـوانـاـ عـلـىـ زـوـالـهـاـ،ـ وـدـلـيـلـاـ عـلـىـ انـقـضـاءـ حـيـاتـهـاـ.

يـدـلـكـ هـذـاـ عـلـىـ أـنـ الـفـلـسـفـةـ لـاـ تـنـظـرـ إـلـاـ إـلـىـ الـمـاضـيـ،ـ إـنـهـاـ تـحـمـلـ مـاـ فـصـلـتـهـ الـأـزـمـانـ،ـ وـمـنـ ثـمـ تـنـاقـشـ وـتـنـنـقـدـ،ـ وـلـكـنـهـاـ لـنـ تـضـعـ لـلـمـسـتـقـبـلـ صـورـةـ مـرـسـوـمـةـ،ـ عـلـىـ أـنـ مـاـ فـيـ هـذـهـ النـظـرـيـةـ مـنـ حـقـّـ قـدـ يـتـنـاـولـهـ الشـكـ،ـ وـتـحـفـ بـهـ الـرـيبـ،ـ غـيرـ أـنـنـاـ لـاـ نـوـدـ أـنـ نـمـضـيـ فـيـ الـكـلـامـ فـيـهـاـ الـآنـ؛ـ لـأـنـنـاـ سـوـفـ نـعـودـ إـلـيـهـاـ بـعـدـ،ـ بـلـ نـكـتـفـيـ هـنـاـ بـأـنـ نـقـولـ:ـ بـأـنـ مـاـ نـعـنـيـ مـنـ اـصـطـلاحـ «ـالـفـكـرـ»ـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـتـقـنـ وـمـاـ يـعـنـيـ مـنـ اـصـطـلاحـ الـفـلـسـفـةـ؛ـ وـلـذـاـ نـقـضـيـ بـأـنـ تـارـيخـ الـفـلـسـفـةـ خـلـالـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرــ،ـ أـمـرـ يـخـتـلـفـ تـامـ الـاخـلـافـ عـنـ تـارـيخـ الـفـكـرـ فـيـهـ،ـ عـلـىـ أـنـ هـنـالـكـ مـوـضـعـاـ قـدـ تـحـلـ فـيـهـ كـلـمـةـ «ـالـفـلـسـفـةـ»ـ مـَحـلـ كـلـمـةـ الـفـكـرـ،ـ غـيرـ أـنـهـ مـوـضـعـ يـقـرـبـ فـيـهـ مـعـنـىـ

«الفلسفة» من المعنى المدرك من «الفكر»، ولا يقرب فيه معنى «الفكر» من المعنى المدرك من «الفلسفة»، وعلى هذه القاعدة كتب «هيوويل» Whewell «فلسفة العلوم الاستقرائية» Philosophy of the Inductive Sciences، وجعل الغاية مما كتب أن يبحث عن أساليب الفكر التي تُتَّحَّذَ، عن قصد أو عن غير قصد، سبيلاً إلى التفكير أو البحث العلمي فتؤدي إلى تقدم العلم وارتقاءه.

على أننا قد نقع على محاولاتٍ شبيهة بهذه في التجارة والسياسة والحكومات والدين والأدب على وجه عام، على أن الفلسفة في كل هذه الحالات لا تدلُّ على معنى أكثر من أنها طريقة خاصة للتفكير والاستنتاج يستعان بها على حاجات الحياة، عملية كانت أم عقلية، وليس هذا هو المعنى الذي يدرك من الفلسفة في الاستعمال المتفق عليه. إنها لتدل على شيءٍ أعمق من ذلك، فلا هي أخذت على أنها أسلوب مرسوم، ولا على أنها طريقة عقلية حرة تبرز بها الفكريات والتأملات، بل أخذت للدلالـةـ على نظريـاتـ محدـدةـ تفسـرـ بها ظاهرـاتـ الكـونـ بالـغـةـ منـ حـقارـةـ الشـأـنـ أوـ عـظـمـ الـخـطـرـ ماـ بـلـغـتـ.

ومن هنا لا نشك في أن الفلسفة تكون شطرًا عظيمًا من أشطر الفكر خلال القرن التاسع عشر، وقد تكون أشد ما أنتج الفكر أخذًا بالروع، وصرفًا للذهن في سبيل التأمل والاستبصار، على أنها في الحين ذاته أكثر ما أنتج الفكر خصوصًا لبواعت التغيير، وأوسعها للمناقشة والنقد مجالًا. ومع هذا، فإننا لا نشك في أن الفكريات الخفية، والاستنتاجات العميقـةـ الغـورـ البعـيـدةـ المتـنـاوـلـ، لهـيـ الأـسـاسـ الذـيـ قـامـ عـلـيـهـ هيـكلـ النـوـاتـجـ العـقـلـيـةـ وـالـفـنـيـةـ، وـالـمـسـتـحـدـثـاتـ الـعـلـمـيـةـ الـتـيـ شـيدـ نـواـحـيـهاـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ.

وعلى هذا، يظهر لكل باحث استعمق في البحث في نزعـةـ الفـكـرـ الأـوـرـوـبـيـ خلالـ القرنـ التـاسـعـ عـشـرـ، أنـ مـبـاحـثـهـ لاـ بـدـ مـنـ أـنـ تـنقـسـمـ إـلـىـ شـطـرـيـنـ عـظـيـمـيـنـ كـلـاهـماـ يـتـنـاـوـلـ نـاحـيـةـ خـاصـةـ، فـفـيـ الشـطـرـ الـأـوـلـ يـجـبـ عـلـيـهـ أـنـ يـعـتـبـرـ الفـكـرـ عـبـارـةـ عـنـ مـجـرـدـ وـسـيـلـةـ تـسـلـمـ إـلـىـ غـايـةـ مـاـ، أـوـ كـأـسـلـوـبـ يـتـتـحـذـ ذـرـيـعـةـ لـلـوـصـولـ إـلـىـ غـرـضـ مـعـيـنـ، سـوـاءـ أـكـانـ نـظـرـيـاًـ أـمـ عـمـلـيـاًـ، وـلـيـؤـدـيـ الـفـكـرـ فـيـ هـذـهـ الـحـالـ مـنـ معـنـيـ أـكـثـرـ مـنـ أـنـ نـوـعـ مـنـ الـإـسـتـنـتـاجـ الـعـقـلـيـ اـسـتـخـدـمـ فـيـ سـبـيلـ الـبـحـثـ عـنـ الـعـرـفـ، أـوـ عـنـ طـرـيقـ تـطـبـقـ بـهـاـ الـمـعـارـفـ الـإـنـسـانـيـةـ.

ولـاـ كـانـتـ كـلـ الـإـسـتـنـتـاجـاتـ الـعـقـلـيـةـ لـاـ تـبـدـ إـلـاـ بـفـرـوـضـ أـوـ أـوـجـهـ مـنـ النـظرـ نـدـعـوـهـاـ الـمـقـدـمـاتـ أـوـ الـمـبـادـئـ أـوـ الـقـضـاـيـاـ الـضـرـوريـةـ، وـمـنـ هـذـهـ الـأـوـلـيـاتـ تـوـلـدـ أـسـالـيـبـ مـعـيـنـةـ؛ـ فـإـنـ هـذـاـ الشـطـرـ مـنـ الـبـحـثـ يـنـقـسـمـ بـدـورـهـ إـلـىـ قـسـمـيـنـ:ـ يـتـنـاـوـلـ الـقـسـمـ الـأـوـلـ تـقـرـيرـ الـمـبـادـئـ،ـ وـيـخـتـصـ الـقـسـمـ الثـانـيـ بـالـبـحـثـ فـيـ الـأـسـالـيـبـ الـتـيـ يـمـضـيـ الـإـسـتـنـتـاجـ الـعـقـلـيـ،ـ نـظـرـيـاًـ كـانـ أـمـ عـمـلـيـاًـ،ـ خـاضـعـاًـ لـمـؤـثـرـاتـهـ.

غير أن الفكر ليس يقتصر أثره في الوجود على زيادة معرفتنا بالأشياء الكائنة، وتطبيق المعرفة على الأغراض العملية؛ فإنه إن اقتصر على هذا وحده لتفرق بدأً ومضي ناقصاً غير تام، بل غالب ما أوحى إلينا بوجوهٍ من التناقض تغشى عقولنا حيناً بعد حين. دليلاً على هذا أن الذين يهبون أنفسهم للمباحث العميقة المستفيضة، أو إلى العمليات، غالباً ما يأنسون من أنفسهم نزعة إلى التغلغل في أوجهٍ من النظر في حقيقة الأشياء تتسع أمامهم دائرتها كلما أمعناها في البحث، في حين أن حاجتهم من البحث لم تكن لتبلغ بهم إلى تلك الحدود القصية التي يسوقون بأنفسهم في غمراتها بلا حاجة إليها؛ فقد يظهر للباحث مثلاً أن الأساليب التي يتخدّها لبحثه سبيلاً قد أصبحت معدومة الجدوى والنفع، إن أراد الوصول بها إلى غرض عملي يضعه نصب عينيه، فيمساك إلى الشك في تلك المبادئ التي مضى عليها عاكفاً نصف عمره، من غير أن يُدخله الرئيس يوماً واحداً في صحة ما تقوم عليه من الحقائق، وفيما ينتظر أن تنتج من الفوائد. وقد يصادف باحث آخر نجاحاً باحتدائه أسلوباً خاصاً في البحث، وبذلك تتجدد رغبته في تطبيق ذلك الأسلوب على موضوعاتٍ كانت تعالج من قبله على طريقةٍ مخالفةٍ لطريقته؛ وربما ينهض بذلك الأسلوب إلى درجةٍ يصبح معها قاعدةً عامةً من قواعد الفكر.

وقد يتفقُ لباحثٍ ثالثٍ أن يأخذ به الشغف بتتبع المعرفة في فرعين أو ثلاثة من فروعها تلوح على ظاهرها غير مرتبطة برباطٍ ما، غير أن هذه الفروع إذ تتقارب في ذهن الباحث لا يلبث أن يأنس من نفسه؛ لتقاربها في ذهنه وضعاً، رغبةً في أن يُوحَّد بينها، ويؤلِّف بين ما تعارض من وجوهها. وقد يبلغ باحثٌ رابعٌ بعد زمانٍ ما إلى حدٍ من الملل مما عكف عليه من مباحث لم تؤَدِّ به إلا إلى نواحٍ من العلم محدودة الفائدة، فيسعى إلى التخلص مما عكف عليه طوال عمره؛ ليفوز بناحية أخرى من البحث العلمي أوسع مدى، وأكثر فائدة، وأبعث على الأمل والرجاء.

على أننا إن سلمنا بأن الجهل أو التفريط قد يعوق السواد الأعظم من الناس، الذين لم ينفقوا قواهم حتى في سبيل التنازع للبقاء، عن أن يُكُونُوا وجهاً من النظر تتعدي الدائرة الضيقة التي يلزمونها، وإذا سلمنا بأن الكثيرين منا إنما يعيشون كالأطفال قانعين، موقنين بأن حاجات النوع الإنساني العظمى تدبرها إرادةٌ علويةٌ لن تبلغ إليها عقولنا، ولن تدركها أفهمانا، فإن فيبني الإنسان لعَدَداً عظيماً من أولئك الذين لا يهدأ لهم روع إلا إذا تطلعوا إلى شيء أكرم مما بين أيديهم طبيعة، وأوسع مدى، وأحسن صفة؛ أولئك الذين يعيشون متعطشين للوصول إلى مستكن الحكمـةـ الصـحيـحةـ، أو تسـوقـهـمـ طـبـيعـتـهـمـ

الـثـائـرـةـ المـتوـثـبـةـ إـلـىـ الـبـحـثـ وـرـاءـ الـقـوـاـدـ وـالـأـغـرـاضـ الـغـائـيـةـ الـتـيـ يـُـشـيـدـ عـلـيـهـاـ هـيـكـلـ الـكـونـ وـالـحـيـاـةـ.

لقد أفلحت اللغة في نحت الكلمة تعبير عن هذه المحاولات على تعدد مظاهرها، وعلى اختلاف أوجه تطبيقها، وَضَعَتْ لها كلمة — «التأمل» Speculation، وهي كلمة تدل على ما تتطلب هذه الأشياء من جرأة وإقدام، وما تبعث عليه من التغيير بالنفس. وُجِدَتْ تلك الأشياء في كل العصور، وفي كل الأمم، وفي كل اللغات، وعلى الجملة حينما كان الأدب بارزاً في صورة من العقل أو التخييل، مصبوغاً في قالب من النثر أو الشعر أو الرموز، معبراً عنه في بعض الأحيان بمصطلحات محدودة، وفي البعض الآخر بمجازاتٍ غامضةٍ مبهمة؛ فقد نتصور أن الفلسفة لم تنشأ إلا من طريق تلك الأوليات الغامضة، حيث شرعت العقول تسلاكها في نسقٍ يُراعي فيه أسلوبٌ ما، أو توحدها فتجعل منها كلاً متماسك الأطراف، مؤتلهن النواحي. وعلى هذا نستطيع أن نعرّف الفلسفة بأنها «الانصراف إلى التأمل على أسلوبٍ مبينٍ محدودٍ؛ للوصول إلى وحدة نظامية»، وقد نقول: بأن العلم والفلسفة هما «التفكير الأسلوبوي» Methodical Thought، في حين أنَّ كلمة «نظامي» لا تتصرف إلا إلى صور التفكير الفلسفـيـ العمـيقـ الـذـيـ يـرـمـيـ إـلـىـ بـلـوغـ الـوـحـدةـ وـالـكـمالـ.

لقد مضينا حتى الآن في تدبر الفكر على قاعدة أنه وسيلة تؤدي إلى غاية، أو بالأحرى نستطيع أن نقول: إننا مضينا ببحث الفكر في نزعته العلمية. والآن نريد أن ندرج من ذلك إلى بحث الفكر إذ يتخذ الفكر موضوعاً لتأمله؛ أي كفوة تتعكس على نفسها، وتصرف إلى معرفة ماهيتها وأصلها ونشأتها ونوايسها، وقوة ثباتها، والفحص عن قواها، مع الانصراف في كل ذلك إلى الوصول إلى حدٍ يتحقق عنده كمالها ووحدتها وبقاوها، وكل ما في هذا الشطر العظيم من أشطر الفكر سوف نطويه تحت عنوان «الفلسفة»، فكما أننا سلخص القسم الأول من كتابنا: «تاريخ الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر» ببحث الفكرة العلمية، كذلك سلخص القسم الثاني منه ببحث الفكرة الفلسفية.

لقد نشأ العلم تدرجاً من مجمل ما استجمع من ضروب المعرف المدخلة بالخطأ المسروسة بالفوضى، وما زال الفكر يعالجها برغبته في الوصول إلى الكمال، ونزعته إلى ترتيب المعرف حسب الكفاءات العقلية، واستخلاص أوجه النفع منها، حتى وصل إلى

ما نعرف منه في العصر الحاضر. كذلك شَبَّتِ الفلسفة بطريقٍ مشابهٍ لهذه، غير أنها شَبَّتِ من ناحيةِ الفكرة التأملية، برغبة وضع تلك الفكرة على نظامٍ يُتَّبعُ فيه أسلوبٌ ما؛ ابتقاء الوصول إلى غرض محدد أو غاية بعينها.

ومع كل هذا فلن يسع العلم ولا الفلسفة، ولا كلامهما إن اجتمعا وتمازجاً، معنى «الفكر»، ولن يشمل معنى العلم ولا معنى الفلسفة ما يقصد من اصطلاح «الفكر»؛ فإنَّ كُلَّاً من العلم والفلسفة ينطوي تحت ما يعني من اصطلاح «الفكرة الأسلوبية» المنشومة على قواعد معينة، غير أنه لدينا ناحية الفكر المعروفة الروابط والنظم؛ ناحية الفكر المطلقة من الحدود والتعاريف، تلك التي تستتر وراء صور الأدب والشعر والخيال والفن. ولن يظهر لتلك الناحية من أثرٍ في عصمنا إلا في الحياة الفنية أو الأدبية أو الدينية.

وهذه الصور إن كانت من الواقع شعاعاً في الحياة الفنية أو الأدبية أو الدينية، وهذه الصور إن كانت من الواقع شعاعاً منعكساً على الحياة من أشعة العلم أو نور الفلسفة، إلا أنها، ككل الأشعة المنعكسة، لا تتبع مصدر الضوء الذي ينبعث عنه وجودها فقط، بل تتقدمه في الظهور عادة. إنها ليست العتمة التي تعقب النهار، بل هي فجر المعرفة الذي يتقدم بزوع الشمس. إنها الشفق الذي ترامت خيوطه المشعة في ظلمة الفكر. إنها الصدفة التي كمنت فيها جرثومة الفكر التي تخض عنها جنين المستقبل، فيها نشأت بدايات الفن، وأوليات الفلسفة والعلم، التي لم يقف العقل على أسرارها، ولم يحلم بما سوف يكون من نتائجها. إنها لتحيط بأبعد أغوار العقل، حيث هنالك تجد مبعث الفكر وأصله كامناً في تضاعيف الفطرة، وحيث ترجع بين حين وآخر إلى تلك الأغوار السحرية ل تستمد الحياة كلما أعزتها الحياة، وتستنزل الوحي كلما أعزها الوحي، فيزجيها بكل طرف وتليد.

لن يكمل بحث يعني بتاريخ الفكر في القرن التاسع عشر، أو يبلغ حدّاً يرضي الحق، من غير أن يصرف عنابة الاستبصر إلى ذلك العالم الكبير، عالم الفكر المطلق من الأساليب الموضوعة والأنظمة المفروضة، ذلك العالم الذي تمثله الأداب والفنون التي تبرز في عصر ما من العصور.

لقد خُصَّ الأدب والفن في القرن التاسع عشر بقسطٍ من الحياة، ونصيب من قوة الابتكار، وسرعة التغير والانقلاب التابعين لنزعـةـ الفـكـرـ. لم ترو عصور التاريخ ما يبزها شأنـاًـ وخطـراًـ، إلا عصورـ ثلاثـ: عصر سعدت به أثيناـ فيـ عهدـ «برـكـلـيـزـ»ـ،ـ وـعـصـرـ نـعـمـتـ بهـ إـيـطالـياـ إـبـانـ «ـالـنـهـضـةـ الـعـلـمـيـةـ»ـ،ـ وـعـصـرـ أـزـهـرـتـ فـيـ إـنـكـلـاتـرـاـ تـحـتـ حـكـمـ «ـالـيـصـابـاتـ»ـ،ـ عـلـىـ

أن القرن التاسع عشر قد خُصّ بقسط من الابتكار الموسيقي لم تبلغ إليه العقول في كل عصور التاريخ، ففي ذلك الفن وحده، على ما يقول الثقةُ وجهاده أهل النظر، ييز عصرنا بقية العصور، قوة ابتكار، ووفرة إنتاج، كذلك تجد في الشعر أن «جوته» و«واردسوورث» قد نهضا بالأذواق إلى مستوى أرقى من مستواها الذي ورثته عن القرون الأولى، وأبدع الفكر الفرنسي والإنجليزي نوعاً مبتكرةً من القصص الخيالي، في حين أن تصوير المناظر الطبيعية، ذلك الفن الذي خلقه الإنجليز، لم يكن معروفاً خلال القرون الأولى.

كل هذه الأشياء، على الرغم من نشوئها مطلقاً غير مقيدة بقانون علمي ولا قاعدة فلسفية، وفي الغالب خارجة عن سلطان المدارس والمعاهد، فإنها تشير، بل تدل، على طرق جديدة من طرق التصور العقلي، وتشف عن مجموعة من الفكريات لم يتم نشوؤها، أو هي أتمت من النشوء الفكري قسماً جزئياً. إنَّ كُلَّ هذه النواتج لَتَنُ عن مجهد عقلي عميق، وإن لم يمتسه العلم ولم تسقه الفلسفة بعد، إلا أنه ينطوي، جرياً على ما حدنا من ذلك التصور الجوهرى، تحت عالم الفكر، أن المعنى المدرك منه قد يكون غامضاً ملغزاً، والتعبير الواضح الجلي الذي سوف ينتج ذلك المجهود في الفلسفة والاستنتاج العقلي، قد يكون بعيداً غير بَيْنَ لنا في زماننا هذا، غير أنها مع ذلك لا تستطيع أن تنكر أنه كائنٌ موجود، وما هو إلا مجموع الفكر غير المحدود. هو تلك الأقبas المذيرة المتناثرة المبددة، التي لم تستشف بعد بؤرتها، ولم نعرف بعد نقطة ارتكازها، هو تلك الأشياء التي لن تستطيع أن نمرَّ بها ونحن نورخ في تاريخ الفكر في القرن التاسع، من غير أن نلقي عليها بنظرةٍ، أو نخصها بعنابة البحث، على غموضها.

ليس من الهين أن نعثر على اصطلاح نصرفه على مجموعة الفكر غير الأسلوبى Unmethodical Thought على تشعبها وتجزئتها وتقاصُم حلقاتها. لن تعثر لها على اصطلاح مكون من كلمة واحدة كاصطلاح العلم أو الفلسفة، يمكن أن يعبر عن كل ما فيها من معنى، وما تحوي من نزعـة.

إلى هنا استطعنا أن نُبَيِّنَ عما لا يمكن أن يصبح من الفكر الأسلوبى يوماً من الأيام، غير أنها مع هذا نشعر بأن ذلك الحيز من الفكر لهو الذي يتضمن أعظم شطر من مصالحنا، وأخص ما يحيك بحياتنا العامة، وأنبل ما نتطلع إليه في الآمال، وما نشرئب إليه بأعناقنا في الأمانى. إن العلم ليتمشى في طريقِ تسلُّم به شيئاً فشيئاً ليصبح مسألة إحصاء ونسبة، فيكون مهنة لا تُعْنِي بغير العمل، وحانوت البيع والمصنع والسوق، وكذلك الفلسفة؛ فإننا نستثمـنـ فيها كثيراً من رائحة المدرسة وقاعة المحاضرة.

وهي فضلاً عن ذلك لِتُمْعَن في سبيل التكون على صورة مَذَهَبٍ أو قضايا عامة، وكثيراً ما تهنتنا بالتعاريف، وبالنظر في المجردات، غير أنك تجد أن النسبة والإحصاء والمقاييس والتعاريف، وتجريد الفكر الصرف؛ لتعجز برمتها عن أن ترضي، في ساعة هدوءٍ أو فترة نحس فيها بحاجة ماسة من حاجات الدنيا، مطالب الحياة التي نقع عليها في الدين. وإنني لأصرف هنا كلمة الدين كما هي في أصلها وجوهرها، وهي تدل عندي على ذلك الشطر من الفكر الذي يبرز في مجموعة مؤلفات الأدب الخارجة عن مباحث العلم والفلسفة.

هناك كلمات يكثر أو يقل استعمالها في الأدب الحديث قد تساعدنـا على وضع قاعدة نفرق بها بين ما نريد أن نفرق بين بعضه وبعض من نواتج العقل الإنساني، بحيث تؤهل بنا إلى تكوين نظرة أولية تثير لنا السبيل الذي يجب أن نسلكه في بحثنا هذا.

يقال: إن العلم ذو صفات ثلاثة، يقال: إنه تام، إيجابي، موضوعي، وإن الفرق بينه وبين صور الفكر الأخرى أن هذه غير تامة، مبهمة، ذاتية subjective. إن العلم ليؤدي للعقل نواتجه أو فكراته في اصطلاحات محدودة بالتعريف، مباشرة المعنى، بينما تجد أن هناك عالماً من الأدب والنواتج العقلية غير محدود بالتعريف، رمزيًا في قوامه، غير مباشر المعنى والتعبير. إن العلم ليس بأن ليس له من دعامة إلا دعامة المعرفة، على أن تكون بيّنة جلية تامة الوضع؛ لهذا تجده معانداً في طبيعته لنوادي الفكر المرتكزة على الآراء والاعتقاد والإيمان.

ولا يغيب عنـاـ أنـ هـذـهـ المصـطلـحـاتـ إـمـاـ أـنـ تـشـيرـ إـلـىـ الأـسـلـوبـ الذـيـ يـُـنـتـحـىـ فـيـ الـبـحـثـ،ـ وإـمـاـ أـنـ تـشـيرـ إـلـىـ مـوـضـوـعـ الـبـحـثـ ذـاتـهـ.ـ أـمـاـ الـعـلـمـ فـيـعـتـرـفـ بـأـنـ لـهـ أـسـلـوبـاـ ثـابـتـاـ لـاـ يـحـتـملـ الجـدـلـ،ـ وـلـاـ يـسـعـ التـورـطـ فـيـ الـمـسـائـلـ الـخـلـافـيـةـ النـظـرـيـةـ.ـ وـأـمـاـ بـقـيـةـ فـروـعـ الـفـكـرـ،ـ فـإـمـاـ أـنـ تـسـتـعـيرـ أـسـالـيـبـهاـ مـنـ الـأـسـلـوبـ الـعـلـمـيـ!ـ وـإـمـاـ أـنـ تـطبـقـ أـسـالـيـبـ مـتـغـاـيـرـةـ لـمـ يـجـمـعـ عـلـيـهـاـ الإـجـمـاعـ كـلـهـ،ـ أـوـ تـأـبـيـ الـخـضـوعـ لـأـسـلـوبـ مـاـ عـلـىـ وـجـهـ عـامـ.

إذا بلغنا هذا المبلغ أمكننا أن نقول بأن وضع حد للتفريق بين موضوعات بحثنا أصبح مستطاعاً؛ فالعلم يتناول كل الأشياء أو الموضوعات التي تطرأ على أذهان السود الأعظم من الناس، أو تمس مصالحهم. وهي موضوعات قد يبلغ إلى الإحاطة بها كثيرون من الناس؛ ولهذا يفخر العلم بأن مشاهداته واستنتاجاته خاضعة دائماً للتحقيق والبحث آنَّا بعد آن، لذلك تجد أن شطراً عظيماً من المشاهدات والاستنتاجات العلمية قد تؤخذ في أكثر الأحيان على أنها حقائق تامة أجمع على صحتها وثباتها، فيمضي الذين لا يأنسون من أنفسهم القدرة على تمحيصها وبحثها، أو الذين تقدّم بهم الهمة دون فحص براهينها قانعين بأنها أشياء بدهية لا مبدل لها.

غير أن هناك أشياء كثيرة تقوم في عقل كل فرد من الأفراد، شخصية في طبيعتها، ذاتية في مبعثها، ولهذه الأشياء في أنفسنا من الشأن والخطر ما لغيرها من مطالب الحياة وحاجاتها. إن هذه الأشياء **لتكونُ** المادة الحقيقة التي يترك منها الفكر الخارج عن ميدان العلم، وهي في جوهرها ومظهرها مناظرة للعلم اليقيني. وفي هذا الشطر من الفكر لا يستطيع شخص بذاته أن يقوم بعملٍ ينتفع به الكثيرون، على نفس الطريقة التي **تُحدّى** في العلم، فالأخذ بالبرهان في ذلك الشطر مستحيل، والإجماع على شيء فيه لا يضم تحت لوائه إلا عددًا قليلاً من الناس، فالأقوال والنظريات لا يمكن أن تؤخذ في هذا الشطر على أنها حقائق ضرورية لا تحتمل الجدل كما هي الحال في العلم، بل إن كل شخص لا بد في أن يجتاز فيها السبيل الذي اجتازه الذين تقدموه، قبل أن يأنس من نفسه القدرة، أو يجد لنفسه حقاً، في قبول ما ألقى إليه، أو الانتفاع بثمراته.

إن الصفة الوحيدة التي تلزم ذلك الشطر من الفكر أنه فردي ذاتي، في حين أن العلم، مهما كانت صبغته، ومهما كان أصله، عامٌ موضوعي؛ أي غير ذاتي، يرجع إلى الموضوع لا إلى الذات التي تفكـرـ فيـ المـوـضـوـعـ وـتـفـحـصـ عـنـهـ، فإذا تمثلـتـ الفـكـرـ بشـيءـ ذـيـ طـرـفـينـ مـتـنـاظـرـينـ،ـ أـلـفـيـتـ أـنـ الـعـلـمـ الـرـياـضـيـ فـيـ أـحـدـ طـرـفـ الـفـكـرـ،ـ وـأـنـ الـدـيـنـ فـيـ الـطـرـفـ الـثـانـيـ.ـ وإنـ لـتـجـدـ أـنـ الـاـتـفـاقـ فـيـ الـطـرـفـ الـأـوـلـ صـفـةـ مـتـلـازـمـةـ كـالـاـخـتـلـافـ فـيـ الـطـرـفـ الـثـانـيـ.ـ تـلـحظـ أـنـ وـحـدةـ الـفـكـرـ صـفـةـ ثـابـتـةـ فـيـ الـطـرـفـ الـأـوـلـ،ـ فـيـ حـينـ أـنـ لـنـ تـقـعـ لـهـ عـلـىـ ظـلـلـ فـيـ الـطـرـفـ الـثـانـيـ.ـ إـنـهـ لـمـ تـعـرـفـ فـيـ الـدـيـنـ وـلـنـ تـعـرـفـ،ـ إـنـكـ إـذـ أـرـدـتـ أـنـ تـعـبـرـ عـنـ ذـلـكـ بـالـكـلـامـ الدـارـجـ لـاستـطـعـتـ أـنـ تـقـولـ:ـ إـنـ الـمـعـرـفـةـ وـالـتـحـقـيقـ لـزـامـ الـطـرـفـ الـأـوـلـ،ـ وـإـنـ الإـيمـانـ وـالـاعـتـقـادـ لـزـامـ الـطـرـفـ الـثـانـيـ،ـ عـلـىـ أـنـكـ فـيـماـ بـيـنـ الـطـرـفـيـنـ تـقـعـ عـلـىـ مـسـافـةـ كـبـيرـةـ مـنـ الـخـلـفـ تـفـصـلـ بـيـنـهـمـاـ.ـ إـنـ هـذـهـ مـسـافـةـ لـيـغـشـاهـاـ مـنـ الـفـكـرـ صـورـ تـصـلـ بـيـنـ الـطـرـفـيـنـ،ـ تـبـزـ حـينـاـ فـيـ هـيـكـلـ مـنـ الـمـعـرـفـةـ،ـ وـآخـرـ فـيـ مـثـالـ مـنـ الإـيمـانـ؛ـ فـيـخـتـلـفـ فـيـهاـ قـلـيلـ مـنـ الـأـشـيـاءـ الـمـحـقـقـةـ.ـ بـكـثـيرـ مـنـ الإـيمـانـ وـالـاعـتـقـادـ المـبـهمـ.

تلك المسافة الكبيرة، وهذه المفارقة المترامية الأطراف، والتي تتوارد عليها صور التغاير والاختلاف سريعة متعاقبة، هي سكن الفلسفة الحقيقـيـ، ومنتـهاـ الأـصـلـيـ؛ـ الفلـسـفـةـ التي تتناولـ الـحـقـائـقـ،ـ وـلـأـنـفـ مـنـ الإـيمـانـ،ـ الـفـلـسـفـةـ أـصـلـ الـمـعـرـفـةـ،ـ وـمـنـبـعـ الـاعـتـقـادـ وـالـيـقـينـ،ـ الفلـسـفـةـ حلـقةـ الـوـصـلـ الـواـقـعـةـ بـيـنـ الـطـرـفـيـنـ:ـ طـرـفـ الـعـلـمـ الـيـقـينـيـ،ـ وـطـرـفـ الـدـيـنـ.ـ ولوـ كـانـتـ كـلـ فـكـرـاتـنـاـ قـائـمةـ عـلـىـ الـرـياـضـةـ الـصـرـفـةـ،ـ رـاجـعـةـ إـلـىـ الـعـدـدـ وـالـقـيـاسـ وـالـتـقـديرـ الـحـاسـبـيـ،ـ أـوـ كـانـتـ دـيـنـيـةـ صـرـفـةـ،ـ لـاـ تـنـظـرـ إـلـاـ فـيـ مـصـالـحـنـاـ الـذـاتـيـةـ،ـ وـمـعـقـدـاتـنـاـ الـخـاصـةـ،ـ لـاـ

كان لنا من حاجة إلى وسط يقوم ببعـءـ التـفـاـهـمـ بـيـنـ الطـرـفـيـنـ، ويـصلـ بـيـنـ المـتـنـاظـرـيـنـ، ولـماـ قـامـ فـيـ عـقـولـنـاـ خـلـافـ بـيـنـ الـأـشـيـاءـ الـحـقـقـيـةـ، وـبـيـنـ الـمـعـقـدـ الذـاتـيـ، غـيرـ أـنـنـاـ لـاـ تـبـثـ أـنـ نـعـكـفـ عـلـىـ القـوـاعـدـ الـرـياـضـيـةـ، أـوـ نـعـمـلـ عـلـىـ إـبـراـزـ مـعـقـدـاتـنـاـ إـلـىـ حـيـزـ الـعـمـلـ، حـتـىـ تـدـرـكـنـاـ صـورـتـاـ الـفـكـرـ الـأـخـرـيـنـ، وـتـلـزـمـ الـاحـتكـاكـ بـمـصـالـحـنـاـ؛ فـنـشـعـرـ إـذـ ذـاكـ بـضـرـورـةـ الـكـشـفـ عـنـ نـظـرـيـةـ أـوـ مـذـهـبـ يـمـنـعـ التـصـادـمـ بـيـنـ الـأـطـرافـ الـمـتـبـاـيـنـ، وـيـسـيـرـ كـلـ الـأـطـرافـ فـيـ طـرـيقـ يـمـتـنـعـ فـيـهـ اـحـتكـاكـ بـعـضـهـاـ بـعـضـ. عـلـىـ أـنـ الـظـرـوفـ الـتـيـ تـنـتـجـ مـثـلـ هـذـاـ الـاحـتكـاكـ إـذـ تـخـتـلـ باـخـلـافـ حاجـاتـ الـحـيـاةـ الـعـمـلـيـةـ وـمـطـالـبـهـاـ، وـتـتـبـاـيـنـ بـتـقـدـمـ الـعـلـمـ الـعـلـمـيـ، كـانـ تـغـيـرـ تـلـكـ النـظـرـيـاتـ وـالـمـذـهـبـ وـمـضـيـهـاـ مـعـنـةـ فـيـ التـطـوـرـ وـالتـبـاـيـنـ أـمـرـاـ مـحـتوـمـاـ بـحـكـمـ ذـكـ.

قدـ يـقـالـ هـنـاـ –ـ جـرـيـاـ عـلـىـ مـاـ تـقـدـمـ: إـنـ مـهـمـةـ الـفـلـسـفـةـ تـتـحـصـرـ فـيـ تـدـبـرـ تـلـكـ الـطـرـقـ الـمـخـلـفـةـ الـتـيـ تـطـبـقـ بـهـاـ الـأـسـالـيـبـ الـعـلـمـيـةـ الـصـرـفـةـ وـيـنـتـفـعـ بـهـاـ، أـوـ مـلـاحـظـةـ تـلـكـ السـبـلـ الـمـتـبـاـيـنـةـ الـتـيـ تـصـبـحـ مـنـ طـرـيقـهـاـ الـمـعـقـدـاتـ الـذـاتـيـةـ ذاتـ أـثـرـ فـيـ الـمـسـائـلـ الـعـلـمـيـةـ. وـهـيـ مـسـائـلـ تـشـتـرـكـ فـيـهـاـ الصـبـغـةـ الـذـاتـيـةـ الـخـاصـةـ بـالـصـبـغـةـ الـمـوـضـوعـيـةـ الـعـالـمـةـ، وـلـنـ يـسـتـبـعـ ذـكـ أـنـ الـفـلـسـفـةـ يـجـبـ أـنـ تـشـيـدـ مـذـهـبـ تـامـةـ، غـيرـ أـنـهـ مـنـ الـطـبـيـعـيـ، بلـ مـنـ الـضـرـوريـ، أـنـ يـُـحـدـثـ اـسـجـمـاعـ عـدـ كـبـيرـ مـنـ الـنـظـرـيـاتـ وـمـظـاهـرـ الـفـكـرـ الـعـالـمـةـ نـزـعـةـ فـيـ النـفـسـ إـلـىـ التـأـلـيفـ بـيـنـ مـاـ تـخـالـفـ مـنـهـاـ، وـالـتـوـحـيدـ بـيـنـ مـاـ تـبـدـدـ مـنـ مـجـمـوعـهـاـ؛ لـتـصـبـحـ كـلـاـ مـتـمـاسـكـ الـأـطـرافـ. بـذـكـ تـجـدـ أـنـ الـتـصـمـيمـ الـذـيـ لـمـ يـكـنـ فـيـ مـبـدـئـهـ سـوـىـ شـيـءـ اـنـتـقـادـيـ تـمـهـيـدـيـ صـرـفـ، وـالـذـيـ لـمـ يـكـنـ إـلاـ مـجـرـدـ وـسـيـلـةـ يـتـذـرـعـ بـهـاـ إـلـىـ غـايـةـ، قدـ سـاقـ الـفـكـرـ فـيـهـ إـلـىـ تـكـوـينـ نـظـرـةـ شـاملـةـ فـيـ حـقـيـقـةـ الـأـشـيـاءـ؛ـ أـيـ إـلـىـ مـذـهـبـ فـلـسـفـيـ.

وـأـنـتـ فـيـ أـيـةـ مـنـ الـجـهـاتـ نـظـرـتـ فـيـ الـمـوـضـوعـ، فـلـاـ بـدـ مـنـ أـنـ تـقـودـ خـطـوـاتـ إـلـىـ اـعـتـبارـاتـ ثـلـاثـةـ يـتـشـكـلـ فـيـهـاـ الـفـكـرـ:ـ الـاعـتـبارـ الـعـلـمـيـ،ـ الـاعـتـبارـ الـذـاتـيـ،ـ وـالـاعـتـبارـ الـفـلـسـفـيـ.ـ فـإـنـاـ أـهـمـلـ بـاحـثـ مـنـ الـبـاحـثـيـنـ الـنـظـرـ فـيـ اـعـتـبارـ مـنـ هـذـهـ الـاعـتـبارـاتـ فـيـ تـارـيخـ يـضـعـهـ فـيـ تـطـوـرـ الـفـكـرـ فـيـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ؛ـ فـإـنـهـ لـاـ مـحـالـةـ فـاـقـدـ قـسـطـاـ مـنـ قـيـمةـ عـمـلـهـ عـلـىـ قـدـرـ مـاـ يـكـونـ إـهـمـالـهـ.

وـلـاـ رـيـبـ فـيـ أـنـ هـنـالـكـ مـدارـسـ تـصـدـتـ لـبـحـثـ الـفـكـرـ دـمـجـتـ الـعـلـمـ فـيـ الـفـلـسـفـةـ،ـ وـأـخـرىـ ظـلـلتـ مـعـقـدـةـ أـنـ لـاـ اـسـتـقـلـالـ بـيـنـ الـفـكـرـ فـيـ صـورـتـهـ الـدـيـنـيـةـ،ـ وـصـورـتـهـ الـذـاتـيـةـ،ـ وـصـورـتـهـ الـفـرـديـةـ،ـ وـأـنـ هـذـهـ الصـورـ لـيـسـ سـوـىـ صـفـاتـ مـنـتـحـلـةـ لـاـ صـفـاتـ حـقـيقـيـةـ.ـ وـهـذـهـ الـنـظـرـيـاتـ وـأـمـثـالـهـ إـنـ حـازـتـ قـسـطـاـ مـنـ الـأـثـرـ فـيـ الـعـقـولـ كـبـيرـ،ـ إـلـاـ أـنـهـ لـمـ يـكـنـ لـهـاـ مـنـ نـصـيبـ فـيـ الـنـهاـيـةـ إـلـاـ السـقـوطـ وـالـفـنـاءـ.

وـهـاـ نـحـنـ نـجـدـ أـنـفـسـنـاـ فـيـ نـهـاـيـةـ عـصـرـ مـنـ أـطـلـوـنـقـ النـقـدـ وـأـخـبـهـاـ إـنـتـاجـاـ،ـ فـلاـ نـسـتـطـعـ أـنـ حـكـمـ بـأـنـ عـالـمـ مـنـ عـوـالـمـ الـفـكـرـ الـثـلـاثـةـ قـدـ فـازـ بـنـصـرـ فـاـصـلـ عـلـىـ الـعـالـمـيـنـ الـآـخـرـيـنـ،ـ فـلـاـ يـزـالـ كـلـ مـنـ الـعـلـمـ وـالـفـلـسـفـةـ وـالـدـيـنـ شـرـعـاـ فـيـ حـكـمـ الـعـقـلـ مـنـ حـيـثـ الـأـثـرـ الـخـاصـ بـكـلـ مـنـهـاـ؛ـ فـالـعـلـمـ لـاـ يـزـالـ كـمـاـ كـانــ تـلـكـ الصـورـةـ الـفـكـرـيـةـ الـتـيـ تـزـوـدـنـاـ بـأـوـجـهـ الـعـرـفـةـ الـحـقـقـةـ،ـ وـالـدـيـنـ لـاـ يـزـالـ مـنـبـعـ الـمـعـقـدـاتـ الـتـيـ تـنـزـلـ إـلـىـ أـبـعـدـ أـغـوارـ الـمـصالـحـ الـذـاتـيـةـ،ـ وـلـاـ نـزـالـ نـجـدـ أـنـ أـنـفـسـنـاـ أـشـدـ مـاـ كـانـتـ شـعـورـاـ بـالـحـاجـةـ إـلـىـ التـوـفـيقـ بـيـنـ ذـيـنـكـ الـطـرـفـيـنـ بـوـضـعـ نـظـرـيـاتـ تـعـتـدـنـ تـحـتـنـيـ فـيـ الـحـيـاةـ،ـ وـتـبـعـدـ عـنـ الـعـلـمـ بـمـقـدـارـ بـعـدـهـاـ عـنـ الـاقـتـنـاعـ الـذـاتـيـ الـصـرـفـ.ـ وـهـذـاـ يـدـلـكـ عـلـىـ أـنـ الـحـاجـةـ إـلـىـ الـفـلـسـفـةـ أـشـدـ مـاـ كـانـتـ فـيـ كـلـ الـعـصـورـ الـأـخـرـىـ.ـ لـقـدـ شـهـدـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ تـطـوـرـاـ عـظـيمـاـ وـقـعـ فـيـ الـفـكـرـ الـعـلـمـيـ،ـ وـنـهـضـةـ خـصـتـ بـهـاـ الـصـواـحـ الـدـينـيـةـ،ـ وـحـيـاةـ جـديـدـةـ بـعـثـهـاـ الـشـعـورـ وـالـنـشـاطـ الـدـينـيـ،ـ وـهـوـ عـلـىـ الـظـنـ الـغالـبـ أـغـنـىـ مـنـ كـلـ الـعـصـورـ الـتـيـ تـقـدـمـتـ بـالـنـظـرـيـاتـ الـفـلـسـفـيـةـ وـبـمـذاـهـبـ الـفـلـسـفـةـ.

لـشـدـ مـاـ كـانـ أـسـفـيـ إـذـ أـفـيـتـ نـفـسـيـ مـضـطـرـاـ لـأـنـ أـقـيـسـ الـمـوـضـوعـ الـذـيـ عـكـفـتـ عـلـىـ الـكـتـابـةـ فـيـهـ،ـ وـأـنـ أـفـصـلـ بـيـنـ أـجـزـائـهـ؛ـ لـأـنـ الـفـكـرـ فـيـ مـظـاهـرـهـ الـثـلـاثـةـ لـيـسـ إـلـاـ وـحدـةـ،ـ الـاضـطـرـارـ إـلـىـ تـفـضـيلـ بـعـضـ مـظـاهـرـهـاـ عـلـىـ بـعـضـ،ـ وـاـخـتـيـارـ نـقـطةـ نـبـأـ مـنـهـاـ السـيـرـ أـمـرـ أـشـعـرـ مـعـهـ بـكـثـيرـ مـنـ الـأـسـفـ.ـ رـأـيـتـنـيـ مـضـطـرـاـ،ـ بـحـكـمـ الـضـرـورةـ،ـ لـدـىـ أـوـلـ عـهـدـيـ بـالـتـأـمـلـ فـيـ أـمـرـ الـفـكـرـ خـلـالـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ،ـ أـنـ أـجـزـئـ مـاـ هـوـ فـيـ الـوـاقـعـ مـُـتـّـجـدـ الـأـجـزـاءـ،ـ مـؤـتـفـ الـنـوـاحـيـ،ـ وـلـحـظـتـ فـوـقـ ذـلـكـ أـنـيـ مـلـزـمـ،ـ كـلـمـاـ أـمـعـنـتـ فـيـ بـحـثـ مـظـاهـرـ الـفـكـرـ،ـ بـأـنـ اـنـتـخـبـ مـنـ بـيـنـهـاـ مـاـ هـوـ أـكـبـرـ خـطـرـاـ،ـ وـأـثـمـنـ قـيـمـةـ؛ـ لـأـجـعـلـ مـنـهـ نـقـطةـ الـابـتـداءـ.

عـلـىـ أـنـ الـحـقـيقـةـ أـنـ فـكـرـةـ التـفـضـيـلـ بـيـنـ بـعـضـ مـظـاهـرـ الـفـكـرـ وـبـعـضـ لـمـ تـقـعـ قـطـ فـيـ سـبـيلـ عـمـلـيـ كـقـاعـدـةـ ثـابـتـةـ؛ـ فـإـنـيـ أـسـلـمـ مـوـقـنـاـ بـأـنـ كـلـ مـظـاهـرـ الـفـكـرـ تـتـسـاوـيـ مـنـ حـيـثـ الـأـثـرـ وـالـقـيـمـةـ،ـ وـلـاـ أـبـتـئـسـ إـنـ أـنـاـ بـدـأـتـ بـالـنـظـرـ فـيـ مـظـاهـرـهـ بـغـيرـ تـفـضـيـلـ وـلـاـ اـخـتـيـارـ،ـ تـارـكـاـ الرـجـوعـ إـلـىـ الـمـظـهـرـيـنـ الـآـخـرـيـنـ رـهـنـ الـظـرـوفـ الـتـيـ تـحـيـطـ بـبـحـثـيـ؛ـ ذـلـكـ لـأـنـ مـظـاهـرـ الـفـكـرـ إـنـ نـظـرـتـ إـلـيـهـاـ مـنـ نـاحـيـةـ الـتـارـيـخـ وـالـوـاقـعـ الـفـيـتـهـاـ نـسـيـجـاـ وـاحـدـاـ مـُـتـلـازـمـةـ أـجـزـاءـهـ كـلـ الـتـلـازـمـ،ـ بـحـيـثـ يـتـعـذرـ عـلـيـكـ أـنـ تـفـصـلـ بـيـنـ خـيـوطـهـ إـلـاـ لـتـذـهـبـ بـالـصـورـ الـطـبـيـعـيـةـ لـلـمـنـسـوجـ فـيـ مـجـمـوعـهـ.

ذـلـكـ فـيـ حـيـنـ أـنـهـ لـيـسـ مـنـ الـمـتـعـذـرـ أـنـ تـضـعـ نـفـسـكـ فـيـ مـوـاضـعـ مـتـبـاـيـنـةـ إـذـ أـنـتـ مـكـبـ

عـلـىـ الـتـأـمـلـ مـنـ مـظـاهـرـ الـفـكـرـ الـثـلـاثـةـ فـيـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ؛ـ لـتـتـخـذـ فـيـ مـوـضـعـ مـنـهـاـ مـظـهـرـاـ

تـضـعـهـ فـيـ قـمـةـ الـبـحـثـ،ـ وـالـآـخـرـيـنـ فـيـ الـقـاعـدـةـ؛ـ فـإـنـكـ لـنـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـنـكـرـ مـثـلـاـ أـنـ الـمـظـهـرـ

الـذـيـ التـأـمـ مـنـ حـولـهـ الـفـكـرـ الـأـلـمـانـيـ خـلـالـ التـلـثـ الـأـلـوـنـ منـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ كـانـ الـمـظـهـرـ الـفـلـسـفـيـ،ـ إـنـ ذـاكـ الـعـدـيدـ الـواـفـرـ مـنـ الـمـذاـهـبـ الـفـلـسـفـيـةـ الـتـيـ تـعـاقـبـ ذـيـعـهـاـ فـيـ الـأـلـمـانـيـاـ لـأـمـرـ بـاعـثـ عـلـىـ أـشـدـ الـعـجـبـ.

كـذـلـكـ كـانـ تـأـثـيرـ تـلـكـ الـمـذاـهـبـ عـلـىـ الـأـدـبـ وـالـعـلـمـ وـالـحـيـاـةـ الـعـمـلـيـةـ مـقـطـوـعـ النـظـيرـ فـيـ تـارـيـخـ الـإـنـسـانـ،ـ وـالـرـغـبـةـ فـيـ اـسـتـيـعـابـ الـمـعـرـفـةـ الـتـيـ أـهـابـ بـطـلـابـ الـعـلـمـ فـيـ نـوـاحـيـ الـدـنـيـاـ الـأـرـبـعـ لـيـتـوـافـدـوـ إـلـىـ الـأـلـمـانـيـاـ،ـ فـتـكـتـظـ بـهـمـ قـاعـاتـ الـدـرـسـ؛ـ لـيـتـلـقـواـ عـنـ كـبـارـ الـفـلـاسـفـةـ الـغـيـبـيـنـ،ـ لـنـ تـقـعـ عـلـىـ مـاـ يـمـاثـلـهـ الـلـهـمـ إـلـاـ فـيـ مـارـسـ أـثـيـنـاـ فـيـ الـعـصـورـ الـقـدـيمـةـ،ـ أـوـ فـيـ قـاعـةـ الـفـيـلـسـوـفـ «ـأـبـيلـارـ» Abelard فـيـ الـقـرـونـ الـوـسـطـيـ.

فـإـذـاـ بـدـأـنـاـ الـبـحـثـ بـالـنـظـرـ فـيـ هـذـهـ الـنـهـضـةـ الـكـبـيرـةـ،ـ وـكـيـفـ نـشـأـتـ وـنـمـتـ،ـ وـكـيـفـ ضـعـفـتـ وـبـادـتـ،ـ كـانـ لـنـاـ مـنـ ذـلـكـ تـقـدـمـةـ حـسـنـةـ نـتـرـقـ مـنـهـاـ إـلـىـ الـكـلـامـ فـيـ تـارـيـخـ الـفـكـرـ فـيـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ،ـ وـإـذـاـ مـضـيـنـاـ بـعـدـ ذـلـكـ نـاظـرـيـنـ فـيـ حـالـةـ فـرـنـسـاـ الـفـكـرـيـةـ،ـ وـأـرـدـنـاـ أـنـ نـسـتـخـلـصـ مـنـهـاـ أـشـدـ مـظـاهـرـ الـفـكـرـ فـيـهـاـ أـخـذـاـ بـأـبـابـنـاـ خـلـالـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ،ـ وـقـعـنـاـ عـلـىـ مـجـمـوعـةـ أـسـمـاءـ أـولـئـكـ الـعـلـمـاءـ الـأـعـلـامـ الـذـيـنـ يـنـزـلـوـنـ فـيـ الصـفـ الـأـلـوـنـ مـنـ بـيـنـ الـعـقـولـ الـتـيـ أـقـلـتـهـاـ الـأـرـضـ فـيـ كـلـ عـصـورـهـاـ؛ـ فـفـيـ الشـطـرـ الـأـلـوـنـ مـنـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ أـقـيـتـ بـذـورـ كـلـ فـرـوـعـ الـعـلـمـ الـحـدـيـثـةـ فـيـ فـرـنـسـاـ عـلـىـ وـجـهـ الإـجـمـالـ،ـ وـخـضـعـ كـثـيرـ مـنـهـاـ لـلـقـوـانـيـنـ وـالـأـسـالـيـبـ الـرـياـضـيـةـ الـبـحـثـةـ.ـ وـفـيـ فـرـنـسـاـ،ـ عـمـّمـتـ مـوـضـوعـاتـ الـعـلـمـ تـعـمـيـمـاـ أـلـبـسـهـاـ ثـوـبـاـ طـلـيـاـ مـنـ الـأـسـلـوبـ الـلـغـوـيـ،ـ فـبـدـأـتـ تـتـغـلـلـ فـيـ الإـدـرـاكـ الـعـامـ،ـ وـأـنـشـأـتـ فـيـ الـأـدـبـ وـالـفـنـ مـدـرـسـةـ حـدـيـثـةـ هـيـ مـدـرـسـةـ الـطـبـعـيـنـ.

وـإـذـاـ قـارـنـتـ بـيـنـ الـرـوـحـ الـرـياـضـيـةـ الـطـبـيـعـيـةـ الـتـيـ نـمـتـ فـيـ فـرـنـسـاـ خـلـالـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ وـبـيـنـ الـفـلـسـفـةـ،ـ وـجـدـتـ أـنـ هـذـهـ لـمـ تـسـعـ بـحـظـ مـنـ النـشـوـءـ كـبـيرـ؛ـ إـنـ النـزـعـةـ التـشـيـيدـيـةـ الـتـيـ أـنـتـجـتـهـاـ الـفـلـسـفـةـ الـخـيـالـيـةـ فـيـ فـرـنـسـاـ إـذـ ذـاكـ لـمـ تـسـتـمـدـ إـلـاـ مـنـ الـمـذاـهـبـ الـقـدـيمـةـ؛ـ كـمـذـهـبـ «ـدـيـكـارـتـ» Descartes،ـ وـ«ـأـفـلاـطـونـ» Plato،ـ وـ«ـأـرـسـطـوـطـالـيـسـ» Aristotle،ـ أـوـ مـنـ الـمـذاـهـبـ الـأـجـنبـيـةـ عـنـ فـرـنـسـاـ؛ـ كـمـذـهـبـ «ـهـيـجـلـ» Hegelـ وـغـيـرـهـ مـنـ فـلـاسـفـةـ الـأـلـمـانـيـاـ الـغـيـبـيـنـ.ـ فـإـذـاـ مـنـ الـمـذاـهـبـ الـأـجـنبـيـةـ عـنـ فـرـنـسـاـ؛ـ كـمـذـهـبـ «ـهـيـجـلـ» Hegelـ وـغـيـرـهـ مـنـ فـلـاسـفـةـ الـأـلـمـانـيـاـ الـغـيـبـيـنـ.ـ فـإـذـاـ رـجـعـنـاـ إـلـىـ إـنـكـلـتـرـاـ وـقارـنـاـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ فـرـنـسـاـ مـنـ نـاحـيـةـ الـعـلـمـ،ـ وـالـأـلـمـانـيـاـ مـنـ نـاحـيـةـ الـفـلـسـفـةـ؛ـ وـجـدـنـاـ أـنـهـاـ قـدـ أـصـيـبـتـ بـالـعـقـمـ الـعـلـمـيـ فـيـ أـوـائلـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ،ـ فـإـنـ الـعـلـمـ وـالـفـلـسـفـةـ لـمـ تـيـنـعـ ثـمـارـهـمـاـ فـيـ إـنـكـلـتـرـاـ إـلـاـ خـلـالـ الـقـرـنـيـنـ السـابـعـ وـالـثـامـنـ عـشـرـ،ـ وـبـيـزـتـ فـيـ النـاحـيـتـيـنـ كـلـ شـعـوبـ أـورـوـبـاـ،ـ وـلـكـنـ نـجـدـهـاـ فـيـ أـوـائلـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ قـدـ أـجـدـبـتـ كـلـ الإـجـادـبـ فـيـ تـكـوـينـ مـارـسـ كـبـرىـ،ـ سـوـاءـ أـفـيـ الـعـلـمـ أـمـ الـفـلـسـفـةـ،ـ فـتـجـدـ أـنـ مـسـتـكـشـفـاتـ الـعـلـمـ الـعـظـمـىـ لـمـ تـقـرـنـ بـسـوـىـ أـسـمـاءـ مـفـرـدةـ ظـلـتـ فـيـ عـزـلـةـ عـمـاـ حـولـهـاـ غالـبـاـ.

وتلك النظم المدرسية الكبيرة التي يحق للعلم أن يفخر بها في فرنسا، لم يكن لها وجود في إنكلترا، كذلك لم يكن لإنكلترا أقل ضلوع في نشر المعرفة العامة في أوروبا إبان القرن التاسع عشر. والفلسفة الغيبية لم تنهض هنالك مطلقاً بعد تلك الضربة التي سدّها إليها «دافيد هيوم»، واقتصر التأمل الفلسفـي على علمي الاجتماع والاقتصاد المبتكرـينـ فيـ ذلكـ العـهـدـ،ـ غيرـ أنـكـ تـلـقـاءـ ذـلـكـ تـقـعـ فيـ إنـكـلـتـرـاـ عـلـىـ فـكـرـاتـ أـخـذـتـ تـتـكـونـ وـتـنـمـوـ فيـ الأـدـبـ الشـعـريـ؛ـ فإنـ ماـ كـانـ مـنـ قـوـةـ الـابـتكـارـ الذـاتـيـ موـشـاهـ بـلـغـةـ «ـشـيلـيـ»ـ Shelleyـ وـوارـدـ سـوـورـثـ الشـعـرـيةـ،ـ وماـ أـبـرـزـ نـبـوغـ «ـتـنـسيـونـ»ـ Tennysonـ،ـ وـبـرـونـنجـ Browningـ منـ المعـانـيـ النـاضـجـةـ العـمـيقـةـ،ـ هيـ الأـشـيـاءـ الـتـيـ تـقـعـ فيـ طـرـيـقـنـاـ كـأـخـصـ ماـ فـاضـ بـهـ الـفـكـرـ الإنـكـلـيـزـيـ خـلـالـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ،ـ سـوـاءـ أحـصـرـنـاـ وـجـهـةـ الـقـارـنـةـ بـيـنـ إـنـكـلـتـرـاـ وـبـيـنـ بـقـيـةـ شـعـوبـ الـقـارـةـ،ـ أمـ بـيـنـهـاـ فـيـ عـصـرـنـاـ مـقـاسـةـ بـالـعـصـورـ الـتـيـ أـبـيـنـ فـيـهاـ الـفـكـرـ الإنـكـلـيـزـيـ مـنـ قـبـلـ ذـلـكـ.

ولقد نرجع في النهاية إلى ما أنتجه أكبر عقل جاد به الشطر الأول من القرن التاسع عشر لِنَسْتَمِدَّ منه نقطةً ابتدأ نرتکز عليها، قد نرجع إلى كتاب «فوسـتـ» Faustـ الذي أخرجـهـ نـابـغـةـ النـواـبـغـ «ـجـوـتـهـ»ـ،ـ قدـ نـرـجـعـ إـلـيـهـ لـنـتـخـذـهـ مـثـلاـ لـأـعـمـقـ ماـ جـادـ بـهـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ مـنـ صـورـ الـفـكـرـ،ـ بماـ فـيهـ مـنـ الشـكـوكـ وـالـأـمـالـ؛ـ إذـ يـنـتـقـلـ بـكـ كـاتـبـهـ مـنـ تـيـهـ الـفـلـسـفـةـ الـمـوـحـشـ إـلـىـ مـيـدانـ الـعـلـمـ الـطـبـعـيـ الـفـائـضـ بـالـنـورـ،ـ الـمـحـفـوفـ بـالـإـيـنـاسـ وـالـطـمـانـيـةـ،ـ أوـ يـأـخـذـ بـيـدـكـ إـلـىـ أـقـصـىـ أـغـوـارـ الـحـيـاةـ الـفـرـديـةـ الـمـسـتـورـةـ وـرـاءـ ظـواـهـرـ هـذـاـ الـعـالـمـ؛ـ ليـقـذـفـ بـكـ إـلـىـ مـطـمـأـنـ الـمـعـتـقـدـ الـدـيـنـيـ وـالـإـيمـانـ وـمـاـ فـيهـ مـنـ الـأـسـرـ الـخـفـيـةـ الـمـحـيـطـةـ بـطـبـيـعـةـ الـخـطـيـئـاتـ،ـ وـالـرجـوعـ عـنـهـاـ إـلـىـ التـوـبـةـ وـالـاسـتـغـفارـ.

علىـ أـنـناـ مـنـ أـيـةـ مـنـ تـلـكـ النـقـطـ نـبـدـأـ سـفـرـنـاـ الطـوـيلـ،ـ وـعـلـىـ أـيـةـ مـنـ بـؤـرـاتـ الـارـتكـازـ،ـ تـقـعـ أـبـصـارـنـاـ لـدـىـ أـوـلـ نـظـرـ نـلـقـيـهاـ عـلـىـ مـاـ بـيـنـ يـدـيـنـاـ مـنـ ذـلـكـ الـمـيـدانـ الـفـسـيـحـ الـذـيـ نـرـيدـ أـنـ نـسـتـكـشـفـ نـوـاحـيـهـ،ـ نـجـدـ أـنـ هـنـالـكـ مـظـهـراـ وـاحـدـاـ يـتـحـيـزـ فـيـ عـقـولـنـاـ مـنـذـ الـبـدـءـ،ـ سـرـعـانـ مـاـ يـلـقـيـ فـيـ رـوـعـكـ أـنـ ذـلـكـ الـمـيـدانـ الـفـسـيـحـ لـيـسـ بـالـجـنـةـ الـتـيـ تـطـمـعـ فـيـهـ بـالـسـكـيـنـةـ وـالـهـدوـءـ،ـ وـلـيـسـ هـوـ بـالـمـكـانـ الـذـيـ تـؤـمـلـ أـنـ تـزـوـدـ فـيـهـ بـمـهـيـئـاتـ الـعـلـمـ الـهـادـئـ الـذـيـ تـبـذـرـ بـذـرـهـ،ـ وـتـجـمـعـ حـصـادـهـ بـدـعـةـ وـلـيـنـ،ـ وـلـيـسـ هـوـ مـنـبـتاـ لـلـتـعاـونـ وـاقـتـسـامـ الـعـلـمـ الـذـيـ تـتـفـرـ فـيـهـ بـالـسـلـامـ الـبـعـيدـ عـنـ خـشـونـةـ الـصـرـاعـ وـالـجـلـادـ.

إـنـهـ لـيـدانـ أـشـبـهـ مـاـ يـكـونـ بـأـرـضـ تـنـاـولـهـاـ الـقـوـاتـ الـعـنـصـرـيـةـ بـالـتـخـرـيبـ،ـ وـأـنـتـابـتـهـاـ الـلـازـلـ الـعـتـيـةـ بـعـواـصـفـ الـتـدـمـيرـ،ـ فـتـرـكـتـهـاـ شـوـهـاءـ لـاـ تـُـفـرـقـ بـيـنـ صـعـيـدـهـاـ وـالـأـخـدـودـ.ـ وـإـنـكـ

لتعثر فيه فوق ذلك على بضعة أناس أخذوا على عواتقهم أن يسدوا منه فجوات أحدثها الماضي، ونقائض خلفها السلف، وأخرين آخذين في تشييد أساس جديدة على قواعد جديدة، وتقع على غير أولاء وهؤلاء فتجدهم متنابذين متصارعين على حيازة الملك أو اقتسام التراث، حتى أولئك العمال الوادعون في مصانعهم لن تركهم طبيعة المجتمع الحافّ بهم آمنين، بل تدعوهם الظروف إلى الاشتراك في تلك المعارك، أو تهزم شكاوى الذين يجاورونهم من مظالم أهل السلطة والجاه فَيَهُبُونَ من مراقدhem عطشى صراع، ويرتدون كُلُّمَى هزيمة وانكسار.

أما إذا أردنا أن نتدارس السبب في ذلك القلق السائد في المجتمع، والذي ظل بينَ الأثر في الحياة طوال القرن التاسع عشر، فالواجب يدعونا إلى أن نرجع النظر كرة إلى العصر الذي تقدمه؛ لنجد أن عاصف تلك الثورة الهوجاء الذي عصف على أوروبا فَدَكَ كلَ النظمات السياسية والاجتماعية، هو الذي ترك ذلك الأثر الظاهر في آرائنا وأفكارنا، من أية ناحية نظرت فيها، وعلى أي الوجوه قبلتها. إن ذلك العصر الذي نشير إليه قد دعي بحق عصر الثورة. أما إذا لم أعتبر أن الفكرة في القرن التاسع عشر مع كل هذا فكرة ثورة وانقلاب؛ فذلك لأن التقويض والهدم تابعان لعصرٍ فرط وانقضى، وأن فجر القرن التاسع عشر قد ثُوَّج بالرغبة في البناء؛ إما بتشييد الأساس الحديثة، وإما بالرجوع إلى صور الفكر القديمة، ومظاهر الحياة التي خلفتها القرون الأولى؛ لتُزكي ببراهين ودلائل مستحدثة، أو لتبذر في ثوب يسدل على معنى جديد، أو منفعة محققة.

كان الفكر في القرن التاسع عشر من الناحية العلمية أساسياً طبعي من جهة، ورجعي من جهة أخرى. ولست أقصد بأنه أساسياً طبعي، إلا لما كان فيه من نزعـةـ الـبنـاءـ والـتـشيـيدـ، التي تغلغلت إلى صميم الأشياء لتتخذ مما تعثر عليه من المواد وسيلةً لإقامة هيكل العلم على أرضِ بُكْرٍ، كما أني لا أقصد بأنه كان رجعيًا إلا لِمَا آتـىـ فـيـهـ منـ شـتـىـ المحـاـولاتـ المـيـئـسـةـ التي اعتمـدتـ عـلـىـ النـظـمـ التـارـيـخـيـةـ وـالـعقـائـدـ، وـمضـتـ فـيـ تـلـكـ السـبـيلـ عـامـلـةـ لـلـعـثـورـ عـلـىـ مـاـ فـيـهـماـ مـنـ حـقـيقـةـ، وـمـاـ لـهـماـ مـنـ قـيـمـةـ فـيـ الـحـيـاةـ الإـنـسـانـيـةـ، وـمـاـ يـتـضـمـنـانـ مـنـ خـطـرـ وـشـأـنـ فـيـ عـلـاقـتـهـماـ بـالـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ.

إن عوامل الهدم والتقويض لا تزال قائمة بفتوسها ومعاولها، فإننا لا نزال نرى الروح الثورية قائمة فَتِيَّةً في عصر التأسيس والبناء، فإن الحياة الجديدة الملوءة بكل بواعث القوة التي بثها «برنز» Burns، و«واردسورث» و«كولييردج» في الشعر الإنكليزي

إبان القرن التاسع عشر، قد عاقتها الروح الثورية التي خصت بها مدرسة «بيرون» The School of Byron عن الانبعاث في سبيل النشوء، بل سمعتها، كذلك تجد أن الفكرة الحديثة التي ثبت وترعرعت في فلسفة «كانت» والمدرسة المثالية Idealistic خلال تعاقب الصور التي توالّت عليها إلى «مادية» جوفاء، «ولا أدرية» لا تترقب وراءها منأمل ولا رجاء.

إنك لن تجد عاملاً من تلك العوامل المهدمة المقوضة — على ما بعثت في الأنفس خلال تعاقبها من لذة وفتنة — قد أنبت متوجهاً حديثاً اتجه فيه الفكر، وكل من أراد أن يدرس أوجه التدليل التي تهدمت بها النظمات الاجتماعية، أو نقضت بها المعتقدات التي طالما أعزها الناس، فلا بد من أن يرجع إلى ما كتب مؤلفو القرن الثامن عشر، الذين صبوا براهينهم وأدلةهم في قالب من القوة والسلasse، ظل المنهل الفائض الذي اعتل منه فوضويو القرن التاسع عشر زماناً طويلاً. ولقد نسج على منوالهم من كُتاب زماننا فئةً خُصّت بأوسع شهرة وأعظم منزلة.

ذلك ليس من قصدي أن أصف تلك الطرق التي تذرعت بها الحكومات والسياسيون ابتعاء صد الأمم عن مطالبهما الشرعية، تلك الطرق التي انتهت في أمريكا بإعلان الاستقلال، وفي فرنسا بصيحة الثورة الكبرى، فإنه لم يتحقق من مجموع الأمثال العليا التي أبرزتها تلك الحركة الكبيرة إلا جزءاً ضئيلاً في إنكلترا. ولقد صد الانصراف إلى تحقيق الوحدة القومية، أو الصراع ابتعاء الاستقلال السياسي كثيراً من أمم أوروبا عن الانبعاث في سبيل الإصلاح الداخلي.

ولم يتفق النظريون على أيٌ من النظمات الاجتماعية تستطيع الحرية والمساواة أن تقوما لتعيشا في جو واحد، على أن تعليمهم لا بد من أن تستوعي شطرًا من انتباها وعنياتها باعتبارها صورةً من صور الفلسفة العديدة التي أنتجها الفكر في القرن التاسع عشر، غير أن هنالك فجوة سحيقة تفصل بين النظريات الاجتماعية والسياسة العملية، سدت فراغها الحروب والمذاهنات السياسية، أو قنعت بأن يملأ خلاءها الكائن بين النظر والعمل ضروبٌ من التوفيق مضت عاملة على التأليف بين النظمات التي خلفتها القرون الأولى، وبين مهارات العصر الحاضر من جهة، وبين هذه وبين صيحة الأمم المطالبة بحقها المشروع في الحرية من جهة أخرى.

وعلى الرغم من أن جزءاً كبيراً من الفكر العملي مصحوباً بكثير من الجهد قد أنفق في سبيل الوصول إلى تلك النتائج؛ فإني أعتقد أنها خارجة عن موضوعي الذي رسمته

لنفسـيـ،ـ فـحـيـثـمـاـ خـرـجـتـ الـفـلـسـفـةـ أـوـ الـعـلـمـ عنـ ذـلـكـ الجـوـ الـهـادـئـ؛ـ جـوـ الـدـرـسـ الجـديـ،ـ أوـ تـخـطـيـاـ جـدـرـانـ قـاعـاتـ الـمـاحـضـرـةـ وـمـعـالـمـ الـبـحـثـ،ـ إـلـىـ خـلـافـاتـ الـعـوـامـ وـجـدـلـهـمـ،ـ وـحـيـثـمـاـ خـرـجـ الـدـينـ عنـ أـغـوارـ النـفـسـ المـعـتـقـدـةـ الـمـؤـمـنـةـ الـمـخـلـدـةـ لـأـسـرـارـ الـغـيـبـ؛ـ لـيـكـونـ وـسـيـلـةـ لـحلـ مـعـضـلـاتـ الـحـيـاةـ الـبـشـرـيـةـ،ـ أـوـ آـلـةـ لـأـلـاءـ الـوـاجـبـاتـ الـيـوـمـيـةـ؛ـ فـهـنـالـكـ أـمـسـكـ عنـ النـظـرـ فـيـهاـ،ـ لـأـنـهـ بـذـلـكـ تـكـوـنـ قـدـ خـرـجـتـ عنـ الـحـدـودـ الـتـيـ أـلـزـمـتـ نـفـسـيـ السـكـونـ إـلـيـهاـ،ـ وـلـوـقـوفـ عـنـ حـدـودـهـاـ.

ولـيـسـ مـنـ مـعـنـىـ هـذـاـ أـنـيـ لـأـسـلـمـ بـوـجـودـ ذـلـكـ الـحـيـزـ الـذـيـ تـخـضـعـ فـيـهـ الرـوـحـ الـمـادـةـ وـتـتـغلـبـ عـلـيـهـاـ،ـ وـالـذـيـ يـكـوـنـ الـفـكـرـ فـيـهـ ذـاـ نـفـعـ مـادـيـ،ـ وـالـذـيـ قـدـ تـنـقـلـ فـيـهـ الـفـكـرـاتـ إـلـىـ حـقـائـقـ ثـابـتـةـ؛ـ حـيـزـ الـجـلـادـ وـالـجـهـادـ؛ـ حـيـزـ الصـبـرـ عـلـىـ الـعـمـلـ وـالـانتـصـارـ الـتـدـرـجـيـ الـذـيـ تـتـمـ أـسـبـابـهـ حـالـاـ بـعـدـ حـالـ فـيـ هـدـوـءـ وـتـسـلـسـلـ؛ـ فـإـنـهـ لـحـيـزـ أـعـتـقـدـ أـنـهـ مـاـ أـخـطـرـ مـاـ يـتـنـاـوـلـهـ التـارـيـخـ بـالـإـثـبـاتـ،ـ وـأـنـهـ الـحـيـزـ الـذـيـ أـنـبـتـ فـيـهـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ مـاـ لـمـ يـسـعـدـ بـهـ عـصـورـ الـمـاضـيـةـ.ـ لـسـتـ أـقـصـدـ شـيـئـاـ مـنـ هـذـاـ،ـ بـلـ أـقـصـدـ أـنـ النـظـرـ فـيـ هـذـاـ الـحـيـزـ مـنـ حـيـاةـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ لـأـيـاتـيـ تـامـاـ مـعـ قـصـرـنـاـ الـبـحـثـ عـلـىـ ثـلـاثـةـ الـأـمـ الـرـئـيـسـةـ الـتـيـ أـخـذـتـ مـنـ عـالـمـ الـفـكـرـ بـضـلـعـ وـافـرـ.

إـنـ ذـلـكـ الـعـالـمـ الدـاخـلـيـ لـيـسـ بـعـالـمـ الـوـدـاعـةـ وـالـسـلـامـ وـالـنـشـوـءـ الـهـادـئـ؛ـ إـنـكـ لـنـ تـقـعـ عـلـىـ عـصـرـ أـخـصـبـتـ فـيـهـ الـعـقـولـ فـيـ إـنـتـاجـ كـثـيرـ مـنـ النـظـرـيـاتـ الـمـتـاقـضـةـ؛ـ أـوـ كـانـ أـكـثـرـ تـحـطـيـمـاـ لـلـأـرـاءـ وـالـفـكـرـاتـ الـعـتـيقـةـ،ـ أـوـ أـشـدـ تـقـويـضاـ لـلـمـبـادـئـ الـتـيـ ظـلـتـ قـائـمـةـ ثـابـتـةـ دـهـورـاـ طـوـيـلـةـ،ـ مـنـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ،ـ عـلـىـ أـنـيـ سـأـظـلـ أـمـيـنـاـ عـلـىـ الـمـبـادـأـ الـذـيـ اـعـتـنـقـتـهـ،ـ مـبـداـ أـنـ نـظـرـ فـيـ الـفـكـرـ مـنـ نـاحـيـةـ أـنـهـ قـوـةـ تـشـيـيدـيـةـ،ـ لـأـكـعـالـ تـقـويـضـيـ.

أـرـيـدـ أـنـ نـظـرـ فـيـ عـالـمـ الـفـكـرـاتـ كـشـطـرـ مـاـ كـسـبـ الـعـقـلـ مـنـ قـوـةـ الـيـقـيـنـ،ـ وـلـيـسـ كـظـلـ مـتـحـولـ مـنـ ظـلـالـ الـوـجـودـ الـمـادـيـ،ـ وـإـنـيـ لـأـعـتـقـدـ اـعـتـقـادـاـ حـقـاـ بـأـنـ الـعـقـلـ الـإـنـسـانـيـ مـهـمـاـ اـسـتـعـانـ بـالـمـنـبـهـاتـ الـخـارـجـةـ عـنـ حـيـزـ لـيـنـمـوـ وـيـنـشـأـ،ـ وـمـهـمـاـ عـجزـ عـنـ التـقـدـمـ بـغـيرـ أـنـ يـسـتـمـدـ مـنـ مـصـحـحـاتـ الـقـوـىـ الـخـارـجـيـةـ،ـ فـإـنـهـ فـيـ حـيـاتـهـ الـفـرـديـةـ وـالـاجـتمـاعـيـةـ يـتـضـمـنـ نـبـعـاـ مـسـتـقـلاـ مـنـ كـلـ الـوـجـودـ الـخـارـجـيـ،ـ يـفـيـضـ دـائـمـاـ بـالـحـقـائـقـ ذـاتـ الـأـصـرـةـ بـالـأـشـيـاءـ الـمـحـسـوـسـةـ،ـ وـبـالـفـكـرـاتـ عـلـىـ اـخـتـالـفـ ضـرـوبـهـاـ،ـ وـتـبـاـيـنـ أـلـوانـهـاـ.

لـذـلـكـ سـوـفـ أـعـمـلـ وـأـجـاهـدـ لـكـيـ أـجـعـلـ رـوـاـيـتـيـ فـيـ الـفـكـرـ خـلـالـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ دـائـرـةـ حـولـ الـنـظـرـ فـيـ الـفـكـرـاتـ الـتـشـيـيدـيـةـ الـتـيـ أـبـرـزـهـاـ الـعـقـلـ خـلـالـهـ،ـ غـيرـ غـافـلـ عـنـ الـكـلـامـ

في الأساليب التي احتذها البحث، ولا صور الفكر التي أدت إليه، ولست أقصد بالفkers التشييدية إلا أمثلـةـ الفـكـرـ فيـ «ـنشـاطـ»ـ المـادـةـ أوـ «ـبقاءـ»ـ الـقـوـةـ وـتـوزـعـهـ، وـقـانـونـ الـمـتوـسـطـاتـ والإـحـصـاءـ والـتـغـلـيبـ، وـفـكـرـاتـ دـارـوـينـ وـ«ـسـبـنـسـرـ»ـ فيـ النـشـوءـ عـلـمـيـاـ وـفـلـسـفـيـاـ، وـمـذـاهـبـ «ـالـفـرـديـةـ»ـ وـ«ـالـذـاتـيـةـ»ـ، وـنـظـرـةـ لـوـدـزـ»ـ الـخـاصـةـ فيـ عـالـمـ «ـالـقـيـمـ»ـ، عـلـىـ أـنـ حـولـ هـذـهـ الـأـشـيـاءـ تـتـرـاكـمـ صـورـ النـقـدـ الـتـيـ تـحـاـوـلـ نـقـضـهـاـ، وـالـمـسـائـلـ الـخـلـافـيـةـ الـتـيـ تـنـبـتـهـاـ عـقـولـ الـمـغـالـيـنـ فـيـ الـمـحـافظـةـ عـلـىـ الـقـدـيمـ.

غير أنـيـ سـوـفـ لـاـ تـنـاوـلـ بـالـبـحـثـ مـجـمـلـ مـاـ نـبـذـتـ بـهـ أـقـلـامـ الـمـحـافظـينـ الـثـابـتـينـ عـلـىـ مـغـلـاتـهـمـ فـيـ التـمـسـكـ بـالـأـرـاءـ الـعـتـيقـةـ إـلـاـ مـاـ كـشـفـ لـنـاـ مـنـهـاـ عـنـ أـصـوـلـ الـخـطـأـ الـمـتـغـلـلـةـ فـيـ تـضـاعـيفـ الـفـكـرـاتـ الـحـدـيـثـةـ، أـوـ مـاـ نـزـلـ مـنـهـاـ إـلـىـ أـبـعـدـ أـغـوارـ الـمـبـارـدـ وـالـفـكـرـاتـ الـمـبـتـكـرـةـ لـيـزـيـدـهـاـ ثـبـاتـاـ وـحـقـقاـ، أـوـ مـاـ يـكـشـفـ مـنـهـاـ عـنـ أـسـالـيـبـ جـدـيـدةـ تـسـاعـدـنـاـ عـلـىـ تـحـقـيقـ الـقـوـاعـدـ الـتـيـ نـعـكـفـ عـلـيـهـاـ. إـنـ هـذـهـ لـهـيـ الرـوـحـ الـتـيـ بـثـهـاـ الـفـيـسـلـوـفـ «ـكـانـتـ»ـ فـيـ الـفـكـرـ الـحـدـيـثـ. أـمـاـ مـاـ يـنـاقـصـ تـلـكـ الرـوـحـ مـنـ نـزـعـاتـ الـمـتـطـرـفـينـ الـمـغـالـيـنـ الـذـيـ يـهـدـمـونـ وـلـاـ يـشـيـدـونـ، الـذـيـنـ قـعـدـتـ بـهـمـ الـهـمـةـ عـنـ بـلوـغـ مـرـتـكـزـ ثـابـتـ يـرـتـكـزـونـ عـلـيـهـ، عـلـىـ اـعـتـقـادـ أـنـ الـفـكـرـ الـإـنـسـانـيـ وـقـوـةـ الـمـاـشـاـدـةـ الـمـبـثـةـ فـيـ الـعـقـلـ لـيـسـتـ سـوـىـ خـيـالـ وـوـهـمـ؛ فـأـلـئـكـ سـوـفـ أـمـرـ عـلـيـهـمـ مـرـاـ لـأـعـيـرـهـمـ فـيـهـ شـأـنـاـ وـلـاـ اـنـتـبـاـهـاـ. ذـلـكـ خـيـرـ مـاـ تـفـعـلـ إـزـاءـ فـلـسـفـةـ جـوـفـاءـ عـدـمـتـ كـلـ مـعـنـىـ مـنـ مـعـانـيـ الـحـيـاـةـ.

وـلـاـ يـفـضـلـهـمـ فـيـ نـظـرـيـ أـلـئـكـ الـمـحـافظـونـ عـلـىـ الـقـدـيمـ الـذـيـ يـنـتـقـصـونـ كـلـ تـقدـمـ، مـُـحاـوـلـيـنـ إـخـفـاءـ ضـوءـ النـهـارـ وـرـاءـ الـظـلـمـةـ الـتـيـ تـنـبـعـتـ مـنـ أـقـلـامـهـمـ، وـيـبـشـرـونـ بـمـذـهـبـ «ـالـاسـتـمـارـ»ـ فـيـ الـفـلـسـفـةـ؛ ذـلـكـ الـذـهـبـ الـذـيـ يـنـكـرـ كـلـ تـقدـمـ صـحـيـحـ فـيـ الـعـالـمـ الـإـنـسـانـيـ، غـيرـ أـنـ هـذـاـ كـلـهـ لـنـ يـعـوـقـنـيـ عـنـ الـاعـتـرـافـ بـمـاـ كـانـ لـبعـضـ الـحـرـكـاتـ الـرـجـعـيـةـ مـنـ نـفـعـ وـفـائـدـةـ؛ فـإـنـ «ـالـفـلـسـفـةـ الـتـخـيلـيـةـ»ـ Romanticismـ بـمـاـ كـانـ فـيـهـاـ مـنـ حـبـ الـماـضـيـ، وـمـاـ أـبـرـزـتـهـ مـثـالـيـاتـهـاـ مـنـ تـلـكـ الصـورـةـ الـفـنـيـةـ الـمـحـكـمـةـ الـتـيـ صـورـتـ بـهـاـ الـإـنـسـانـيـةـ فـيـ طـفـولـتـهاـ وـغـرـارـتـهاـ، وـمـظـاـهـرـ الـحـيـاـةـ فـيـ فـطـرـتـهاـ الـأـوـلـىـ، وـإـكـبـابـهـاـ عـلـىـ درـاسـةـ حـالـاتـ الـقـرـونـ الـوـسـطـيـ، وـمـاـ كـوـنـتـ مـنـ كـفـاءـتـ الـقـيـاسـ الـتـارـيخـيـ، كـلـ هـذـهـ الـأـشـيـاءـ كـانـتـ لـهـاـ فـوـائـدـهـاـ، رـغـمـ طـبـيعـتـهاـ الـرـجـعـيـةـ. سـوـفـ أـبـذـلـ جـهـدـيـ لـكـيـ أـجـبـ دـائـمـاـ عـلـىـ مـنـ يـسـأـلـنـيـ: أـيـ شـيـءـ أـضـافـ الـقـرـنـ التـاسـعـ عـشـرـ إـلـىـ مـجـمـوعـةـ مـاـ أـنـتـجـ الـعـقـلـ مـنـ فـكـرـاتـ؟ وـأـيـ كـسـبـ نـالـنـاـ مـنـ ذـلـكـ الـجـهـدـ الـعـظـيمـ؟ مـقـتـنـعـاـ بـأـنـ كـلـ شـيـءـ فـيـهـ صـفـةـ الـحـيـاـةـ لـابـدـ مـنـ أـنـ يـنـمـوـ وـيـزـيدـ وـيـتـضـاعـفـ. وـأـيـ شـيـءـ فـيـهـ مـنـ صـفـاتـ الـحـيـاـةـ الـحـقـيقـيـةـ مـاـ فـيـ الـفـكـرـ؟

على أن مدرسة «النقد الفكري» التي وضع أساسها الفيلسوف «كانت»، والمدرسة «التخيّلية» التي تركزت حول عقل «ولتر سكوت» Walter Scott والتخيّليين الألمان، إن كانتا أخص ما أنتج الفكر في القرن التاسع عشر؛ فإني لأعتقد أنهما لا تصلحان أن تتخذان قاعدة أولية يبتدئ منها باحث يريد أن يؤرخ في عالم الفكر خلال القرن التاسع عشر. إن أخص ما يجب أن ينصرف إليه كل من تصدى للبحث في ذلك العهد: أن يسوق بحثه متخدًا من مذهب «هيجل» في «نشوء الفكر بالقوة الذاتية» مرصدًا يرصد منه الفكر؛ ليخلص من بحثه بنتيجة تحقق لدى المفكرين مقدار ما في هذا المذهب من حق، وما ينطوي عليه من صواب.



